14

سلسلة

مَوَازِينُ الْقُرْآنِ

قراءة قرآنية تعيد وزن الأشياء

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾



مركز الدراسات والبحوث
جامعة ابن كثير الدولية

بيانات النشر والحقوق

إصدار: مركز الدراسات والبحوث – جامعة ابن كثير الدولية
السلسلة: موازين القرآن.
اسم الكتاب: إن وعد الله حق: كيف يعيد اليقين بوعد الله وزن حياتك؟.
رقم الكتاب في السلسلة: الرابع عشر.
الطبعة الأولى: 1448هـ / 2026م
© جميع الحقوق محفوظة لمركز الدراسات والبحوث – جامعة ابن كثير الدولية
ويرحب المركز بإعادة طباعة هذا الكتاب ونشره كما هو، دون تعديل أو حذف أو إضافة، بعد الحصول على موافقة خطية مسبقة من المركز.
هذا الكتاب متاح بموجب ترخيص المشاع الإبداعي نسب المصنف – غير تجاري – منع الاشتقاق 4.0دولي. (CC BY-NC-ND 4.0)
يُسمح بتحميل الكتاب ونسخه ومشاركته وإعادة نشره لأغراض غير تجارية، مع ضرورة الإشارة إلى صاحب الحقوق والمصدر، وعدم توزيع أي نسخة معدلة أو مترجمة منه دون الحصول على إذن.
رابط الترخيص:
https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/deed.ar
النسخة الرسمية المعتمدة للكتاب:
https://www.ibnkathir-edu.org/ar/research-center/books/an-oaad-allh-hk

لا يشمل الترخيص أي مواد مملوكة لأطراف أخرى إلا إذا صُرّح بذلك.
إعداد السلسلة
مركز الدراسات والبحوث — جامعة ابن كثير الدولية
الإشراف العلمي على المركز
أ.د. عبدالله آل سيف
الفريق العلمي للمركز
د. عبدالله سالم باهمام
د. صهيب لموح
د. شادية عبدالله بابكر
إسلام موسى
عادل بافرج
المراجعة والتحكيم العلمي
راجع كتبَ السلسلة وحكَّمها مجموعةٌ من الأكاديميين والمختصين
كما شارك في إنتاج السلسلة وإخراجها عدد من فرق المركز الإدارية والفنية

سلسلة موازين القرآن

عناوين الكتب في السلسلة

- **هو الله** | كيف يبني القرآن معرفة العبد بربه؟
- **إلا ليعبدون** | كيف يوحد القرآن وجهة الإنسان؟
- **زادهم هدى** | مسار القلب بين الهداية والزيغ والعودة
- **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًّا**
- **ولنبلونكم** | رحلة القرآن في كشف القلوب وبنائها
- **اعلموا أنما الحياة الدنيا** | كيف تنتفع بها من غير أن تستعبدك
- **وتحبون المال حبًّا جمًّا**
- **تلك الدار الآخرة** | الميزان الذي يعيد وزن كل شيء
- **قد أفلح المؤمنون**
- **وقولوا للناس حسنة**
- **كونوا قوامين بالقسط**
- **الذين نافقوا** | من فساد الباطن إلى إفساد الواقع
- **وتلك الأيام نداولها** | كيف يعلّمنا القرآن أن نقرأ حركة الأيام؟

إن وعد الله حق — هذا الكتاب

- **إن هذا القرآن**

بين يدي السلسلة والكتاب

مركز الدراسات والبحوث

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروعات مركز الدراسات والبحوث في جامعة ابن كثير الدولية، في إطار عنايته بالبحث والتأليف الشرعي، وبالمشروعات التي تصل هداية الوحي بأسئلة الإنسان الكبرى، وتقرّب أثر العلم من القلب والتصور والسلوك. وينطلق المركز في هذا المسار من أن النصوص الشرعية لا تُطلب لمجرد زيادة المعرفة، بل لتبني رؤيةً صحيحة، وتصحح الموازين، وتهدي الإنسان في علاقته بربه ونفسه والحياة من حوله.

ومن هنا تأتي العناية بالاستقراء، ودقة الفهم، وحسن البناء، وربط المعنى بالواقع من غير أن يتحول الوحي إلى شاهد تابع لفكرة سابقة، ولا أن يطغى التحليل البشري على دلالة النص وسلطانه.

سلسلة موازين القرآن

من هذه العناية جاءت سلسلة «موازين القرآن»: مشروع تأليفي يتتبع موضوعات كبرى كما يبنيها القرآن، ويستنير بالسنة في بيانها وتجسيدها وإتمام مشهدها، ثم يحاول أن يحول ما تكشفه النصوص إلى موازين يرى بها القارئ ربه ونفسه والحياة والناس والنجاح والخسارة، لا إلى معلومات متجاورة فحسب.

ولهذا لا تبدأ السلسلة بفكرة مكتملة ثم تستدعي الآيات والأحاديث لتزيينها، بل تحاول أن تبدأ من الوحي نفسه: تستقرئ نصوصه، وتراعي سياقاتها، وتجمع مشاهدها ومعانيها، ثم تسأل: ما الميزان الذي يبنيه الوحي في القلب؟ وكيف تتغير رؤية الإنسان وعبادته وقراراته إذا صار هذا الميزان حاضرًا فيه؟ فالقرآن هو الأصل الحاكم في بناء الرؤية، والسنة وحي مبين تأتي شارحة ومجسدة ومؤسسة للمعنى بحسب موضعها، ويظل التحليل والتأمل وربط النص بالنفس والواقع خادمًا لهذا الأصل، لا متقدمًا عليه.

والميزان في هذه السلسلة ليس شعارًا ذهنيًا، بل طريقة في النظر والعيش. قد يعرف الإنسان أن الآخرة خير وأبقى ثم يزن أكثر قراراته بالعاجل، ويعلم أن الرزق بيد الله ثم يعيش كأن الأسباب تملك مستقبله. لذلك تحاول كتب السلسلة أن تنقل القارئ من معرفة النص إلى رؤية الأشياء به، ومن فهم المعنى إلى معايشته، حتى يغلق الكتاب وفي قلبه ميزان يعود إليه بعد القراءة في خوفه ورجائه، وفي نعمته وبلائه، وفي اختياراته وعلاقاته وطريقه إلى الله.

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب حقيقة وعد الله بوصفها ميزانًا يعيد ترتيب نظرة المؤمن إلى الحاضر والمستقبل، ويكشف أثر اليقين بخبر الله في مواجهة الخوف والابتلاء وتأخر النتائج. فالإيمان بأن وعد الله حق ليس مجرد حقيقة يقر بها اللسان، بل يقين يستقر في القلب، ويظهر أثره حين تتعارض مشاهد الواقع مع ما يرجوه الإنسان وينتظره.

وينطلق الكتاب من التعريف بالواعد سبحانه، وبيان أثر معرفة صدقه وعلمه وقدرته وحكمته ورحمته في رسوخ اليقين، ثم يتتبع وعود الله في القرآن الكريم، من المغفرة والفضل والهداية، إلى الرزق والمخرج والكفاية، وحفظ أجر العمل، والنصر والتثبيت والتمكين، مع مراعاة سياقات هذه الوعود وشروطها ودلالاتها.

ويعرض الكتاب نماذج قرآنية ونبوية تكشف كيف يعيش المؤمن يقينه بوعد الله في مواطن الشدة والابتلاء، وكيف يجمع بين صدق التوكل والأخذ بالأسباب، وبين رجاء تحقق الوعد والتسليم لحكمة الله في توقيته وكيفية تحققه، دون أن يضيف إلى الوعد ما لم يرد به النص.

وغاية الكتاب أن تنتقل حقيقة ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [فاطر: 5] من اللسان إلى ميزان القلب؛ فيزن بها المؤمن مخاوفه وآماله، ويقرأ بها حاضره ومستقبله، ويواصل العمل والطاعة وإن تأخرت الثمرة، مستيقنًا أن الله لا يخلف وعده، وأن أعظم الموعودات ما أعده سبحانه لعباده المؤمنين في الدار الآخرة.

محتويات الكتاب

هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ [الأحزاب: 22] 1

مَنْ الَّذِي وَعَدَ؟ 7

وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا [البقرة: 268] 14

لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا [العنكبوت: 69] 26

يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا [الأنفال: 29] 28

فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى [الليل: 7] 29

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ [البقرة: 152] 30

أَسْتَجِبْ لَكُمْ [غافر: 60] 31

المَخْرَج والرزق والكفاية 33

فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً [النحل: 97] 38

لَأَزِيدَنَّكُمْ [إبراهيم: 7] 39

إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا [الكهف: 30] 41

كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا [الإسراء: 19] 45

الدفاع والنصر 49

ليستخلفنهم في الأرض [النور: 55] 55

«اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي» 88

هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ [الأحزاب: 22]

ليس أصعب على القلب من أن يسمع وعدًا من الله، ثم يفتح عينيه على حاضر يبدو في الجهة الأخرى.

فالإنسان لا يعيش بين المعاني المجردة، يعيش بين أشياء تقتحم حواسَّه: قوة يراها، وخوف يلمسه، وخسارة وقعت، وأبواب أغلقت، وأرقام تتكاثر، وأخبار تتتابع. والحاضر جهير الصوت بطبيعته، لأنه أمام العين. أما ما لم يقع بعد فلا يملك هذه الهيبة الحسية عند الأكثر ، ولو كان الذي أخبر به هو الله.

ولهذا لم يضع القرآن المؤمن أمام الوعد في مجلس هادئ، ثم يطلب منه أن يقرر نظريًا أيهما أصدق: الله أم ما يرى. أدخله إلى موضع تضيق فيه الأنفاس، ويتحول السؤال من فكرة محفوظة إلى امتحان قلب.

﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 10-11].

هذه ليست لغة تخفف الخوف حتى تجعل اليقين سهلًا. القرآن يسمي الأشياء بأسمائها: أبصار زاغت، وقلوب بلغت الحناجر، وزلزال شديد. المدينة محاصرة، والأحزاب حولها، والخطر ليس خيالًا صنعته نفس قلقة. ولو كان الإيمان الصحيح يقتضي ألا يرى المؤمن الخطر، لكان القرآن أول من محا هذه الألفاظ من المشهد.

لكنه أبقاها كلها، ثم نقلنا إلى الموضع الذي يمتحن فيه الوعد حقًا: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: 10].

فالخوف لا يقف دائمًا عند حد الخوف. يبدأ خبرًا عن النفس: أنا خائف. ثم قد يتقدم خطوة فيصير تفسيرًا للغيب: ما دام الأمر مخيفًا إلى هذا الحد، فلا بد أن النهاية كما أخشى. ثم قد يتقدم خطوة أخرى أخطر، فيصير ظنًا بالله نفسه. هنا لم يعد القلب يصف ما يجده، بل صار يقرأ الله ووعده من خلال ما يجده.

وهذا هو الموضع الذي يجعل لحظة الأحزاب قريبة من كل قلب، ولو لم ير جيشًا ولا خندقًا. ليست الفتنة في وجود ضغط خارجي فحسب، بل في قدرته على أن يتسلل إلى تصورك عن الله: عن صدقه، وعن حكمته، وعن معنى ما أخبرك به. قد يبقى اللسان على عباراته الصحيحة، بينما يعيد الخوف ترتيب الأوزان في الداخل.

ثم عرض القرآن قراءتين للواقعة نفسها.

قال المنافقون ومن في قلوبهم مرض: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: 12].

وقال المؤمنون حين رأوا الأحزاب أنفسهم: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 22].

الواقعة واحدة. الذين أحاطوا بالمدينة هم أنفسهم، والخندق هو الخندق، والخوف الذي يجري في النفس ليس حكرًا على فريق دون فريق. ومع ذلك خرجت من المشهد قراءتان لا تلتقيان: «غرورًا»، و«صدق الله ورسوله».

وهنا ينكشف موضع الميزان: الاختلاف لم يبدأ من السؤال: ماذا حدث؟ بل من السؤال: ماذا يعني ما حدث؟

فقد يتفق اثنان على الخبر نفسه، ثم يختلفان لأن كل واحد منهما يضعه في ميزان مختلف. المنافق في الأحزاب لم يقل: لا يوجد جيش. لو قال ذلك لكان خلافه مع المؤمن في الحس.

إنما رأى الجيش، ثم رفع ما رآه إلى مرتبة أعلى:

ما دام الواقع قد بلغ هذه الشدة، فالوعد الذي سمعناه كان غرورًا.

أما المؤمن فلم يقل: لا خطر. القرآن نفسه شهد عليه بالخوف والزلزال. لكنه لم يمنح الخطر سلطة لم يعطه الله إياها. لم يسمح للحظة أن تتحول من شيء واقع إلى حكم على كل ما وراءها.

ولهذا كان قول المؤمنين أعمق من عبارة تفاؤل وسط أزمة. لم يقولوا: لعل الأمر ينتهي بخير. قالوا: ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب: 22].

تستحق هذه الجملة أن نمكث عندها؛ لأنها ليست وصفًا لنتيجة شاهدوها بعد انتهاء المعركة. هي كلمة قيلت وهم ما زالوا داخل المشهد. قالوا «صدق» قبل أن تنكشف لهم الخاتمة كلها.

إن قولك «صدق الله» بعد أن ترى تمام الخبر له جلاله، لكن قول المؤمنين هنا يحمل معنى آخر: أن يكون مصدر الخبر كافيًا في إثبات صدقه قبل العيان. لم يصنعوا صدق الوعد من قوة نفوسهم، ولم يخلقوه بكثرة التمني. كانوا يتلقون خبرًا من جهة يعرفونها، فثبتت رتبة الخبر وإن اضطربت نفوسهم.

وقد ربط الطبري وغيره قولهم ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب: 22] بما سبق أن أُخبر به المؤمنون من أن طريق الإيمان لا يخلو من الشدة والزلزال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ

الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214].

فلما جاءهم الزلزال لم يجدوا أنفسهم أمام شيء لم يُخبروا أن الطريق يعرفه. كان البلاء شديدًا، لكنه لم يكن حجة على كذب الخبر. ومن هنا صار المشهد نفسه الذي أخرج من قوم كلمة «غرورًا» يخرج من المؤمنين كلمة «صدق».

وفي لفظهم دقة ينبغي ألا نتجاوزها سريعًا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب: 22]. الإشارة بـ«هذا» تقرّب الوعد من المشهد، لكنها لا تعلن أن تمام الموعود قد وقع. لم يكونوا يقفون عند نهاية القصة، بل في قلبها. الذي أمامهم دخل في الخبر الذي سبقهم، ولم يكن هو كل الخبر. وهذه بذرة مهمة: قد يكون ما تراه جزءًا من طريق أخبر الله به، من غير أن يكون هو الصورة الأخيرة التي تنتظرها.

بعد أن استقر هذا الميزان في القرآن، يمكن لمشهد نبوي قصير أن يجعله يُرى لا أن يُشرح.

ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء إلى أصحابه وهم يحفرون الخندق وينقلون التراب على أكتافهم، فقال : «اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ، فَاغْفِرْ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ» رواه البخاري (3797) ومسلم (1804) .

لا نحتاج أن نحمل المشهد أكثر مما يحتمل. يكفي أن نراه: خندق تحت الأيدي، وتراب على الأكتاف، وخطر يقترب، وفي القلب أفق لا ينتهي عند الخندق. لم تكن الآخرة ستارًا يخفون به حقيقة الأرض، ولم يكن التراب الذي يحملونه قادرًا على حبس الحقيقة في الأرض وحدها.

* * *

في سورة الروم ينتقل القرآن بالقلب من مشهد حصار إلى ساحة تاريخ أوسع، لكنه يحتفظ بالسؤال نفسه: ما رتبة الحاضر حين يتكلم الله عن المستقبل؟

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: 2-4].

الجملة الأولى خبر عن شيء وقع: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ [الروم: 2]، والثانية خبر عن شيء لم يقع بعد: ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: 3]. ومن جهة الإنسان هناك مسافة هائلة بينهما. الأولى يشهدها الواقع، أما الثانية فمستقبل لم يدخل بعد في عالم المشاهدة. ولو قالها محلل سياسي لبقيت تقديرًا يخضع لقوة حجته ومعرفته وما يطرأ من متغيرات. لكنه هنا ليس تحليلًا.

﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 6].

ليس الفرق إذن بين جملة واقعية وجملة حالمة. الفرق بين واقع وقع، ووعد من الله لم يقع بعد.

والشيء الذي وقع يكتسب في النفس صلابة لأنه صار مرئيًا، بينما يبقى المستقبل عندنا قابلًا للشك لأنه مستقبل. هذا طبيعي في كلام البشر: ما لم يقع قد يقع وقد لا يقع. لكن الخطأ أن نمد القاعدة نفسها إلى خبر الله، فنخفض يقيننا بالخبر لأن زمنه لم يدخل بعد في زمننا المشهود.

ما لم يقع بعد بالنسبة إلينا ليس مجهولًا بالنسبة إلى الله، وما لم يدخل الحس بعد ليس أقل حقيقة إذا أخبر الله به.

ولهذا أتبع القرآن الوعد بقوله: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: 4].

من قبل الغلبة ومن بعدها. من قبل أن تنقلب الموازين ومن بعد أن تنقلب. ليست الأيام مساحات تخرج من سلطان الله ثم تعود إليه، وليس المستقبل منطقة لم يصل إليها التدبير بعد.

وهذه الجملة لا تلغي الأسباب، بل تعيدها إلى موضعها. موازين القوة جزء من الأمر، وليست مالكة للأمر. السياسة والاقتصاد والمرض والصحة والعدد والعدة أسباب حقيقية في عالم حقيقي، لكن صدقها بوصفها أسبابًا لا يمنحها الاستقلال عن رب العالمين.

وقد يقع اختلال دقيق حين يعرف الإنسان السبب معرفة صحيحة، ثم يستخرج من صحة معرفته به دعوى أكبر منه. يقول: هذا السبب قوي؛ وهذا وصف. ثم ينزلق إلى: إذن لا يمكن أن يتغير الأمر. يقول: الاتجاه مستمر منذ سنوات؛ وهذا خبر. ثم يضيف من عنده: وسيستمر لأنه استمر. هنا لم يعد يصف الحاضر؛ بدأ يتملك المستقبل.

القرآن لا يطلب أن نكذب المعرفة البشرية الصحيحة، بل أن نمنعها من تجاوز مجالها. تستطيع أن تحسب الاحتمالات، وتقرأ التاريخ، وتقدر المخاطر، وتقول: يغلب على ظني أن هذه المقدمات تقود إلى هذه النتيجة. كل ذلك من العقل. لكن يبقى قيد نجاة لا ينبغي أن يسقط: «بحسب ما أعلم».

وهنا يشتد معنى قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: 7].

لم يقل القرآن إنهم لا يعلمون. قال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا﴾ [الروم: 7]. وقد فسر أهل العلم هذا الظاهر بما يعرفه الناس من معايشهم وتصرفهم في دنياهم ووجوه تدبيرها. فالذم ليس للمعرفة من حيث هي معرفة، ولا لدراسة الأسباب، وإنما في أن يصبح الظاهر هو أفق المعرفة كله.

الظاهر ليس كذبًا، لكنه ظاهر.

وربما يقرب ذلك تقرير طبي دقيق بين يدي إنسان. يستطيع الطبيب أن يصف ما ظهر في الفحوص، وأن يذكر مسار المرض في أمثال هذه الحالة، وأن يقدر الاحتمالات بحسب ما انتهى إليه العلم. وكلما كان أكثر علمًا كان أحرص على حدود عبارته. أما المريض الخائف فقد يسمع الاحتمال وكأنه حكم نهائي على كل ما سيقع، لأن قلبه تحت الضغط لا لأن التقرير قال ذلك. هنا لا نحتاج إلى إنكار الطب ولا إلى اختراع وعد بالشفاء، نحتاج فقط إلى ألا نضيف إلى العلم ما لم يقله، وألا ننسب إلى الله ما لم يعد به.

وهذا المثال يكشف معنى أوسع: الحس يخبرك بما رأى، والعقل يحلل ما بلغه، والخبرة ترجح ما عرفت أسبابه، والمشاعر تخبرك بما أحدثه ذلك في نفسك. كل هذه مصادر لها قيمتها في مواضعها، لكنها لا واحدة منها تتحول من شاهد على الحاضر إلى مخبر مستقل عن الغيب.

ومن هنا يحتاج القلب إلى لغة أدق من لغة الانفعال. قد تقول: «لا أرى كيف»، وهذه جملة قد تكون أصدق ما تملك. أما «لا يكون» فدعوى أخرى. وقد تقول: «بحسب المعطيات هذا هو الأرجح»، أما «إذن هذا هو المستقبل» فليست الجملة نفسها. بين العبارتين مسافة بين الاعتراف بحد العلم والحكم على ما وراءه.

وهنا يظهر فرق دقيق: «لا أعلم» ليست «لا أصدق».

ولعل من أجمل ما يحرر القلب هنا أن اليقين لا يطالبه بامتلاك خريطة الغيب. المؤمنون في الأحزاب لم يملكوا خريطة تفصيلية لما سيقع بعد ساعة أو يوم. لم تمدحهم الآية لأنهم أحاطوا بالمستقبل، بل لأن رتبة الخبر لم تسقط في قلوبهم حين حُجب عنهم المستقبل.

﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب: 22].

هذه الجملة لا تعطي الإنسان علم الغيب، بل تعلمه الأدب مع الغيب: يصدق حيث جاء الخبر، ويقف حيث انتهى الخبر. فلا يملأ الفراغات من عنده، ولا يجعل وجود الفراغات حجة على ما ثبت.

* * *

ولا تنافس الأسباب هذا اليقين. فالإيمان بوعد الله لا يقوم على إنكار ما أودعه في العالم من سنن وأسباب.

يقول سبحانه: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: 4].

تعرف الأسباب وتعمل بها، وتفسر ما تستطيع تفسيره، لكنها تبقى أسبابًا داخل ملك الله، لا أبوابًا تخرج منه. معرفة الكيفية لا تمنح السبب استقلالًا عمن خلقه وأقامه.

﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: 4].

ومن هنا يتسع معنى «الواقع» نفسه. نحن نستعمل الكلمة عادة لما وقع تحت الحس، حتى يكاد ما غاب عنه يبدو طبقة أقل صلابة في الوجود. أما في ميزان الوحي فالواقع أوسع من المشهود: منه ما وقع فشهدناه، ومنه ما ثبت بخبر من لا أصدق منه حديثًا.

البعث من الحقيقة وإن لم يقع بعد في زمننا. الجنة والنار من الحقيقة وإن لم نرهما. الحساب ولقاء الله من الحقيقة. وكل موعود ثبت عن الله يدخل في الصورة التي يعرف بها المؤمن العالم، لا لأنه تخيله بقوة، بل لأن الله أخبر به.

وهذا أيضًا يريح القلب من عبء خفي: ليس عليك أن تصنع حقيقة الوعد بقوة شعورك. قد تخاف وهو حق، وقد تضيق نفسك وهو حق، وقد لا تعرف كيف يقع وهو حق. شعورك لا يمنحه الحقيقة، كما أن ضعف شعورك لا يسلبها منه.

ولهذا كان المؤمنون في الأحزاب مؤمنين وهم مزلزلون. لم يقل القرآن: لم يخافوا. قال: ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 11]، ثم نقل عنهم: ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب: 22]. يمكن للقلب أن يضطرب تحت ضغط الطبيعة البشرية ويبقى أصل الميزان مستقيمًا. الوحي لا يريد قلبًا بلا إحساس، بل قلبًا لا يمنح إحساسه حق الحكم على الله.

المؤمن لا يعيش خارج الواقع، لكنه كذلك لا يعيش داخل صندوق الحاضر. عينه في الدنيا، وقلبه مفتوح على خبر الله.

ومن هنا نفهم كيف وقف قوم في الخندق، والقلوب قد بلغت الحناجر، ثم قالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب: 22].

لم تكن لديهم عين أخرى ترى ما لا يراه الناس. كان لديهم خبر من جهة لا تشبه الجهات.

ومن داخل هذا المعنى ينهض السؤال التالي: إذا كان وزن الوعد لا يأتي من ظهوره في الحاضر، فمن أين يأتي؟ ما الذي يجعل كلمة عن مستقبل لم نره أثقل من مشهد يملأ العين؟ ولماذا يستطيع المؤمن أن يقول «صدق» قبل أن يصير الموعود عيانًا؟

كل ذلك يرجع إلى سؤال واحد:

مَنْ الَّذِي وَعَدَ؟

إذا كان الموعود لم يدخل بعد عالم المشاهدة، فمن أين يأخذ خبره هذا الوزن في القلب؟

الجواب يبدأ قبل الموعود نفسه. يبدأ من الواعد.

فأنت لا تسمع عبارة «سأفعل» مجردةً عن قائلها. قد يقولها من عرفت صدقه وقدرته، وقد يقولها من جرّبت منه المبالغة، أو من يريد لك الخير لكنه لا يملك تمامه. وقد يكون صادقًا اليوم، ثم يكتشف غدًا ما لم يكن يعرفه، أو يعجز عما كان يظن أنه قادر عليه. الكلمات قد تتشابه، لكن معرفتك بمن تكلم تدخل في معنى الكلام منذ اللحظة الأولى.

ولهذا يضعنا القرآن أمام خبر الله أحيانًا في موطن تبدو فيه الأسباب التي يعرفها الإنسان كأنها تقول شيئًا آخر: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: 29-30].

«عجوز عقيم». لم يكن في وصفها شيء يحتاج أن يُكذَّب: العمر مضى، والعقم معلوم، والبشارة غلام. لم تقل الملائكة إن هذا الوصف وهم، ولم تطلب منها أن تتجاهل ما تعرفه عن نفسها. لكنها لم تجعل ما تعرفه حدًّا لما يمكن أن يقع.

جاء الجواب من جهة أخرى: ﴿كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ [الذاريات: 30].

وهنا تهدأ الأسئلة قليلًا حول «كيف» لتتجه إلى سؤال أسبق: من الذي قال؟ ثم يأتي التعريف في موضع التعجب نفسه: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: 30]. فالحال التي أدهشت المرأة لم تكن معلومةً لها مجهولةً عند ربها، ولم يكن الخبر صادرًا عن تدبير تنكشف له العواقب بعد أن يبدأ.

وفي بشارة زكريا يتكرر الانتقال نفسه. قال: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: 40]، فجاءه الجواب: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: 40]. السؤال عن الكيفية لم يكن ممنوعًا، لكنه لم يصبح حكمًا على الفعل.

وهذه الآيات لا تعلمنا أن نطلب كل ما خالف الأسباب ثم نسميه وعدًا. إنها تعلم أمرًا أسبق وأرسخ: معرفتك بالأسباب معرفةٌ بالمخلوق، وليست تعريفًا بقدرة الخالق.

وفي حديث هاجر مشهد يجعل هذا المعنى يمشي على الأرض.

جاء إبراهيم عليه السلام بهاجر وابنها إسماعيل إلى الوادي، وليس بمكة يومئذ أحد ولا ماء، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر وسقاءً فيه ماء، ثم قفّى منطلقًا. تبعته أم إسماعيل تسأله: أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ كررت السؤال، وهو لا يلتفت.

لم تكن تعرف لماذا هذا المكان، ولا ماذا سيحدث إذا نفد الماء، ولا من أين يأتي الأنس في هذا الفراغ. وحين لم تجد جوابًا عن هذه التفاصيل، سألت سؤالًا واحدًا: «آللَّهُ الذي أمرك بهذا؟» قال: نعم. قالت: «إذن لا يضيّعنا». رواه البخاري (3364).

لم يتغير الوادي بعد هذه الجملة. بقي خاليًا كما كان، وبقي الماء قليلًا كما كان. ولم تكن تعرف زمزم قبل أن تراها، ولا جرهم قبل أن تأتي، ولا ما سيصير إليه ذلك الموضع بعد أعوام.

الذي تغيّر هو موضع المشهد في قلبها. كان السؤال أولًا: أين الطريق؟ ثم استقر تحته سؤال أعمق: من الذي أمر؟ وحين عرفت جواب الثاني لم تحتج إلى أن تعرف كل جواب عن الأول حتى تثق.

ثم نفد الماء، فسعت بين الصفا والمروة تبحث عن الغوث. يكفي أن تبقى هذه الحركة في المشهد كما جاءت: المعرفة بالله لم تجعل الفراغ ماءً قبل أن يأتي الماء، ولم تجعل الحاجة غير حاجة؛ لكنها منعت القلب من أن يساوي بين غياب الطريق عنه وبين التضييع من رب العالمين.

قد تجهل الطريق، ولا تجهل رب الطريق.

وهذا المعنى له في القرآن اسم يفتح للقلب بابًا آخر من الطمأنينة: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: 19].

جمع السياق لطفه بعباده مع رزقه وقوته وعزته. فالذي لا يعجزه شيء ليس قوةً بعيدةً عنك؛ هو لطيف بعباده، يرزق من يشاء. وقد يخفى عليك الطريق الذي يجري فيه تدبيره، ولا يخفى عليه شيء من الطريق.

ولهذا قال يوسف عليه السلام بعد رحلة لم تكن طرقها ظاهرة في أولها: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: 100]. لم يكن البئر يشبه الملك، ولا السجن يشبه اجتماع الأسرة، ومع ذلك كان التدبير يسير خلال أشياء لم يكن يوسف يملك في أولها أن يرى نهايتها.

ولا يعني اللطف أن نتنبأ بالطريق، أو نزعم أن كل منع سيصير إلى الصورة التي نحبها. معناه هنا أهدأ وأعمق: إذا ثبت الموعود، فجهلك بكيفية وصوله لا يساوي غياب الطريق عن علم الله. قد لا ترى إلا الحلقة التي أنت فيها، واللطيف يعلم من أين يجيء تمام ما شاء.

وإذا كان الوعد يكتسب وزنه من قائله، فإن أول ما يحتاجه القلب أن يعرف أن خبر الله لا يدخله الاحتمال الذي يدخل كلام البشر: هل قال الحق؟

يضع القرآن أمامنا خبرًا لا يستطيع أحد من المخاطبين أن يختبره بحسه قبل وقوعه، ثم يجعل صدق المتكلم نفسه أصلًا في تلقيه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: 87].

تبدأ الآية باسم الله وتوحيده: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [النساء: 87]. ثم يأتي الخبر: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ [النساء: 87]. ليس احتمالًا، ولا رجاءً، ولا توقعًا عن مستقبل قريب؛ بعث بعد الموت وجمع إلى يوم القيامة.

ثم: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: 87].

ونحن، من جهة الحس، لا نملك أن نقف اليوم في عرصات القيامة لنتحقق من الخبر قبل أن نؤمن به. فكيف ينتقل الخبر الغيبي في القلب من «شيء لم أره» إلى «لا ريب فيه»؟ تأتي خاتمة الآية فترد اليقين إلى مصدر الحديث: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: 87].

قال الطبري في معناها: إن قول الله هو الصدق الذي لا كذب فيه، ووعده الصدق الذي لا خُلف له. ليست الثقة إذن قوةً نفسية نضيفها إلى خبر ناقص؛ إنها معرفة بمن صدر عنه الخبر.

وهذا يغير موضعًا دقيقًا في داخل الإنسان. حين يخبرك بشر عن غد بعيد، قد تقول: هو صادق في نيته، لكن من يدري ماذا يحدث؟ أما صدق الله فليس صدق نية فقط. لا يوجد وراء كلامه احتمال أن يكون قد قال ما لا يعلم، أو أخطأ في تقدير ما سيأتي.

ولهذا لا يحتاج كلام الله إلى حرارة شعورك حتى يصير صادقًا. قد تمر على القلب ساعة خوف، أو فتور، أو ثقل لا يجد فيها لذة اليقين كما كان يجدها من قبل. لكن صدق الخبر لم ينشأ من حالك حتى يسقط بتغير حالك.

اليقين ليس اسمًا دينيًا للتفاؤل. التفاؤل قد يولد من رغبتك في شيء. أما هنا فالأصل خارجك: الله أخبر.

وليس الذي أخبر ربًا لا يُرجى إلا من جهة نفاذ قوله؛ إنه سبحانه الذي ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 12]. فالمعرفة بالواعد لا تورث القلب رهبة التسليم فقط، بل تفتح له باب الرجاء وحسن الظن

والمحبة. حين يَعِد بالجنة والمغفرة والرضوان، فالموعود ليس تنفيذًا باردًا لحكم نافذ؛ هو فضل من رب يبشر عباده بما عنده.

وقد قال سبحانه: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ [التوبة: 21]. تأمل لفظ البشارة واسم الرب: موعود الآخرة هنا عطاءٌ يُستبشر به، صادر عن رحمة ورضوان، لا عن قدرة مجردة.

لكن وعد البشر لا يسقط بالكذب وحده. قد يعدك إنسان لا تشك في صدقه، ثم لا يتم وعده؛ لأنه لا يملك العالم الذي يجب أن يتحرك حتى يقع ما أراد.

قد يملك القرار ولا يملك المرض، أو يملك المال ولا يملك العمر، أو يملك سببًا وتغلبه أسباب أخرى.

ولهذا تأتي آيات من الوعد فتفتح أمام القلب معنى الملك قبل أن تتركه يتأمل الموعود: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يونس: 55-56].

الآية في سياق وقوع ما أخبر الله به، لكن ترتيب المعاني فيها جدير بالمكوث: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: 55]، ثم ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [يونس: 55]، ثم ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [يونس: 56].

حين يعد المخلوق، تبقى حول وعده أشياء لا يملكها. أما هنا فلا توجد «عوامل خارجية» عن ملك الله بالمعنى الذي نعرفه في حساب البشر. السماء والأرض وما فيهما له. الأشخاص الذين يتحركون، والأسباب التي تتقاطع، والأزمنة التي تمضي، والحياة التي تبدأ والموت الذي يقطع خطط الناس؛ كلها لا تقع في مملكة أخرى.

وهذا لا يحول العالم إلى مسرح بلا أسباب. الأسباب حقيقية، وقد أمرنا الله أن ننظر فيها ونأخذ بها. لكن كون السبب حقيقيًا لا يجعله مستقلًا، وكونك تستطيع أن تفسر كيف وقع الشيء لا يعني أنك أخرجته من ملك الله.

تأمل الحد الأخير في الآية: ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [يونس: 56]. كل وعد بشري تقريبًا يقف عند الموت. قد يحبك إنسان ويخلص لك ويملك كثيرًا، ثم يموت أو تموت، فينتهي ما بيده. أما الذي يخبرك بالرجوع والجزاء فهو الذي يحيي ويميت، وإليه ترجعون.

هنا يبدأ خبر الآخرة يأخذ وزنًا مختلفًا: الحاجز الذي ينهي قدرة الخلق ليس حاجزًا أمام من بيده أصل الحياة والموت.

وحين يستقر هذا في القلب، لا يصغر الخوف لأنه وهم، بل يصغر موقعه في الميزان؛ فالشيء الذي يخيفك ليس خارج ملك الله، واللحظة التي لا تعرف ما بعدها ليست خارج علمه، والموت نفسه ليس آخر ما يملكه ربك.

وقد يكون الشيء الذي يضغط على القلب ليس مجرد كثرة الأسباب، بل قوة أصحابها. يرى الإنسان قوة قائمة، أو تاريخًا طويلًا من الغلبة، فيبدأ عقله من وصف صحيح ثم يتسلل إلى نتيجة لم يقلها الوصف: هذه قوة لا يمكن أن تُغلب.

هنا تأتي آية فاطر بعد أن تلفت النظر إلى أمم مضت كانت أشد قوة ممن خوطبوا بالقرآن: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: 44].

ليس السياق دعوة إلى احتقار القوة؛ يقول صراحة: ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فاطر: 44]. القوة موجودة، ومعتبرة، وقد تكون أشد من قوة من ينظر إليها.

لكن الجملة التالية تقطع انتقالًا يقع في القلب بسهولة: من «هم أشد قوة» إلى «إذن لا يمكن أن يقع بهم شيء». ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [فاطر: 44].

وهنا يلتقي العلم بالقدرة في الموضع الذي يحتاجهما فيه القلب معًا. قد يكون المخلوق قادرًا لكنه لا يعرف ما ينتظره. وقد يكون خبيرًا بما سيأتي لكنه لا يقدر على دفعه. أما الله فلا يدخل المستقبل وفي علمه فراغ، ولا يعلم ما يريد ثم يقف أمامه العجز.

ما يفاجئك لا يفاجئ علمه. وما يعجزك لا ينتقل منه العجز إلى ربك.

وهنا يقع معنى **القدير** في موضعه من الوعد: ليس معناه فقط أن الله يستطيع الشيء لو أراده، بل أنه إذا ثبت أنه أخبر بشيء وتكفل به فلا يبقى وراء الخبر احتمال عجز يقطعه في آخر الطريق. قد يجهل العبد كيف يقع، وقد يرى من الأسباب ما لا يعرف له مخرجًا، لكن لا يقال في حق الله: أراد ثم لم يقدر.

لا يحتاج القلب إلى تهوين الخصم حتى يعظم ربه. يستطيع أن يقول: هذه قوة عظيمة، وهذه معطيات ثقيلة، وهذا الطريق بحسب ما أراه شديد الصعوبة. ثم يقف عند حدود علمه، ولا يضيف: إذن خرج الأمر من قدرة الله.

ومن هنا نفهم لماذا تأتي العزة بعد نفي إخلاف الوعد في قوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: 47].

الآية في وعد رسله وما توعد به الظالمين، فلا تُنقل إلى كل نصر يتخيله الناس لأنفسهم. لكن مناسبة الاسم ظاهرة: العزيز لا يُغلب. المخلوق قد يعرف ويقدر ويريد، ثم يُغلب. أما الله فلا يقف في الجهة الأخرى من ميزان قوة مع خلقه حتى نسأل أي الطرفين ستكون له الغلبة.

ليس هناك أحد يستطيع أن ينتزع وعد الله من يده.

وتأتي الحكمة لتمنع تصورًا آخر: أن تكون القدرة قدرةً بلا غاية ولا إحكام. في بشارة امرأة إبراهيم كان الذي قال هو ﴿الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: 30]. وفي موضع من وعد الجنة جاء: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [لقمان: 9]. فالذي لا يُغلب لا يفعل عبثًا، والذي يعلم لا يدبر على جهل.

لكن معرفة أن الله حكيم لا تمنحنا علمًا بالحكمة الخاصة في كل حادثة. نستطيع أن نثق بحكمته، ولا نستطيع أن نملأ الفراغ بتفسير من عندنا ثم ننسبه إليه. وهذه المعرفة نفسها تزن القلب: تزيده ثباتًا فيما يعلم، وتواضعًا فيما لا يعلم.

ويبقى وجه آخر لا تستوفيه القدرة والملك وحدهما: قد يقدر الغني من البشر على العطاء، لكنه يحسب ما يخرج من يده، ويخشى النقص، وتضيق خزائنه بكثرة السائلين. أما الله فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15].

أنت الفقير إليه في أصل وجودك وفي كل ما ترجوه، وهو الغني عنك وعن العالمين. وغناه ليس غنىً منقطعًا لا يصل خيره إلى خلقه، ختمت الآية بـ﴿الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15]، وكل نعمة بالخلق منه. فإذا كان الموعود عطاءً، فليس تمامه مزاحمةً على خزائن محدودة، ولا شيئًا يثقل على رب يخشى أن ينقص ما عنده.

وفي الحديث القدسي يصير هذا المعنى مشهدًا لا تعريفًا. قال الله تعالى: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر». رواه مسلم (2577).

تخيل الخلق كلهم، أولهم وآخرهم، إنسهم وجنهم، يسألون في مقام واحد، ثم يُعطى كل إنسان مسألته، ولا ينقص ذلك مما عند الله. ليست الصورة هنا لإخبارك أن كل مطلوب دنيوي سيعطى لك بالصورة التي أردتها؛ إنما لتعرف سعة الغنى الذي تتوجه إليه.

لا تتزاحم حاجتك وحاجات الخلق على خزائن تنفد. ولا يكون عطاؤه لك نقصًا من نصيب غيرك. وحين يثبت أنه وعد، لا يبقى في القلب سؤال خفي: هل يثقل عليه أن يعطي؟ هل ينقص ما عنده إن أنجز ما قال؟

غناه جزء من طمأنينتك إلى وعده، كما أن قدرتَه جزء منها.

ومع هذا كله تبقى الأمانة مع قوله: فمعرفة قدرة الله وغناه ولطفه ورحمته لا تمنح القلب حق أن يصنع من رغباته وعودًا لم يقلها الله.

الله قادر على أن يغير ما تراه، وغني لا ينقصه العطاء، ولطيف بعباده، ورحيم، وحكيم. لكن جملة «الله قادر على هذا» ليست هي جملة «الله وعدني بهذا»، كما أن «الله رحيم» ليست معناها أن الصورة التي أحببتها أنا هي عين ما تكفل الله به.

القدرة تجيب: هل يقدر؟ والغنى يرفع عن القلب وهم النقص، واللطف يطمئنه حين يخفى الطريق، والرحمة تفتح باب الرجاء والدعاء وحسن الظن. أما الوعد فلا يثبت حتى نعرف: هل قال إنه سيفعل؟

وهنا تستقر قاعدة تحمل ما بعدها: **الوعد يستمد يقينه من الواعد، ويستمد حدوده من قوله.**

وحين يجتمع هذا في القلب تتغير هيئة الوعد كلها. الذي أخبر لا يكذب، ولا يجهل ما يأتي، ولا يعجزه ما يريد، ولا ينقصه العطاء، ولا تضيع عليه الطرق إذا خفيت عليك، ولا يغلبه أحد، ولا يدبر أمره عبثًا، وهو رب يرحم ويبشر ويُرجى فضله.

فليس اليقين محاولة منك لتقوية احتمال ضعيف. إنه ثمرة معرفة بمن قال.

لكن كلما عظمت معرفة الواعد، عظمت الأمانة مع قوله أيضًا: لا تنقص من وزن ما قال لأنك لم تره بعد، ولا تزد في قوله لأنك تحب أن يقع شيء آخر.

وهنا يصبح السؤال الآتي طبيعيًا. إذا كان هذا هو الذي وعد، فما الذي تكفل به فعلًا؟ ولمن؟ وتحت أي شرط؟ وأين يقف الخبر وتبدأ أمنيتنا؟

فمن عرف مَنِ الذي وعد، صار أحرص على ألا ينسب إلى هذا الواعد إلا ما قال.

مَاذَا وَعَدَ اللَّهُ فِعْلًا؟

وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا [البقرة: 268]

إذا كان هذا هو الذي وعد، فماذا وعد عباده فعلًا؟

قد يذهب الذهن أولًا إلى النصر، أو الرزق، أو الفرج، أو أمر ينتظره الإنسان في حياته. لكن هناك مستقبلًا يخافه المؤمن أحيانًا أكثر من الفقر والمرض وضياع الفرص: **أن يلقى الله ومعه ذنب يعرفه من نفسه.**

قد يستطيع الإنسان أن ينسى بعض خسائره، وأن يبدأ بعد فشل، وأن يعوض مالًا، وأن يبحث عن باب جديد، لكن الذنب إذا استقر في الذاكرة بطريقة مريضة قد يحاول أن يكتب المستقبل كله بلون الماضي.

لقد فعلت.

لقد قصرت.

لقد عدت بعد أن عاهدت نفسك ألا تعود.

فما الذي يبقى لك؟

القرآن لا يجيب عن هذا الخوف بكلمة بشرية من نوع: لا تقلق، كل شيء سيكون بخير. يضع أمام القلب خبرًا من الله.

قال سبحانه: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 268].

في سياق الإنفاق يضغط على القلب خبر عن المستقبل: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ [البقرة: 268].

ثم يأتي في الجهة الأخرى: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ﴾ [البقرة: 268].

وبماذا؟

﴿مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: 268].

ليس المستقبل كله هو مقدار ما سيبقى في يدك من المال.

هناك مستقبل آخر أخطر وأبقى: موقفك عند الله، وما يكون من مغفرته وفضله.

ولا تكتفي الآية بأن تقابل خوف الفقر بوعد مادي أكبر منه، الشيطان يحصر العين في الفقر الذي يخوفك به، أما الله فيفتح أمام القلب أفقًا لا تختزله أنت في حساب قريب: **مغفرة منه وفضلًا.**

ثم يختم: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 268].

الذي وعد بالمغفرة والفضل واسع، لا تضيق خزائنه بما ضاق به حسابك، وعليم، لا تخفى عليه حالك ولا ما كان منك.

وهنا يثبت في القلب معنى كبير:

من أعظم ما وعد الله به أهل الإيمان والرجوع إليه: المغفرة.

وتأمل كلمةً صغيرة في صدر الموعود: ﴿مَغْفِرَةً مِنْهُ﴾ [البقرة: 268].

منه.

العبد إذا أثقله ذنبه قد يقع في مفارقة مؤلمة: يهرب بقلبه من الله لأنه خائف من الله.

يستحي أن يدعو.

ويتأخر عن الرجوع لأن ذنبه وقع في حق من يريد الرجوع إليه.

لكن أين تكون المغفرة؟

﴿مِنْهُ﴾ [البقرة: 268].

ليس لك من الله مهربٌ إلا إليه، ولا يصلح ما بينك وبينه سواه. الذي تخاف الوقوف بين يديه هو نفسه الذي فتح لك باب المغفرة، والذي علم ما كان منك هو نفسه الذي أمرك أن ترجع إليه.

وهنا تصير معرفة الواعد عبوديةً شديدة القرب: لا تدفعك الهيبة بعيدًا عنه، تدفعك إليه.

ثم إن الآية لم تقل: مغفرة فقط.

قالت: ﴿مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: 268].

ويعود المعنى في موضع آخر: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: 29].

فالموعود ليس مجرد أن ينجو العبد من أثر يخشاه، ثم تنتهي علاقته بربه عند إزالة الخطر. إلى جانب المغفرة **فضل.**

وفي المائدة: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: 9].

كأن هذه النصوص ترفض أن يحبس الذنب نظر العبد في سؤال واحد: كيف أنجو؟

هناك بعد النجاة عطاء.

وبعد ستر الذنب فضل.

وبعد المغفرة أجر.

إن الذي وعدك ليس ربًا يفتح باب النجاة بالكاد، بل ربٌّ قرن المغفرة بالفضل، ووصف نفسه بأنه ذو الفضل العظيم.

* * *

قال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: 9].

قف عند أول الجملة: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ [المائدة: 9].

هذه ليست عبارة رجاء أنشأها المؤمن لأنه يريد أن يهدأ. وليست حسن ظن مجردًا بلا خبر. الله هو الذي سمّى ما يأتي وعدًا.

ثم سمى الموعود: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ [المائدة: 9].

المغفرة هنا ليست هامشًا قبل الأجر العظيم؛ هي من الموعود نفسه.

وإذا كان الذنب من أثقل ما يحمله المؤمن عن ماضيه، فإن وعد المغفرة يعني أن الماضي الذي تعرفه عن نفسك **ليس وحده صاحب الكلمة في مستقبلك عند الله.**

ليس لأن الذنب صار صغيرًا.

ولا لأن الحساب ألغي.

ولا لأن العبد منح نفسه شهادة نجاة.

ولكن لأن الله فتح طريقًا آخر غير اليأس، ووعد من دخل في وصف النص بالإيمان والعمل الصالح: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: 9].

قد يعرف الناس منك صورة حسنة، وأنت تعرف مواضع لا يعرفونها.

قد يمدحون عملًا، وتذكر أنت تقصيرًا خفيًا وقع قبله أو بعده.

وقد يطول بك الزمن حتى يصبح بعض الذنب جزءًا من تعريفك لنفسك: أنا الذي فعلت كذا.

لكن القرآن لا يطلب منك أن تكذب على نفسك، ولا أن تسمي القبيح جميلًا. يطلب منك شيئًا أشرف: **ألا تجعل علمك بذنبك أكبر في قلبك من علمك بما وعد الله به أهل الإيمان والعمل والرجوع إليه.**

وقد يظهر هذا في لحظة لا يراها أحد. تقوم إلى الصلاة بعد ذنب. تريد أن ترفع يديك، ثم يمر في قلبك خاطر ثقيل: بأي وجه تسأل؟

لو كان الحياء سيقودك إلى توبة أصدق فهو حياة للقلب. لكن إن قادك إلى الصمت والابتعاد، فقد صار الذنب يحاول أن يقطعك عن الباب الذي تحتاجه بسببه.

هنا لا تحتاج أن تقنع نفسك أنك بخير.

تحتاج أن تتذكر أن الله قال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ... لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ [المائدة: 9]، وأن المطلوب منك ليس أن تأتيه بتاريخ بلا خطيئة، بل أن تأتيه عبدًا مؤمنًا راجعًا عاملًا بما شرع.

فتصبح لحظة الخجل نفسها طريقًا إلى السجود، بدل أن تكون بابًا للفرار.

ولهذا يقول سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 110].

لم يقل إن السوء لم يقع، ولا إن ظلم النفس صار هينًا. لكنه لم يجعل آخر ما يجده المذنب هو ذنبه.

﴿يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 110].

وحين تكون المشكلة بينك وبين الله، فهذه هي الطمأنينة الأعمق: أن يكون رجوعك إليه، وأن تجد عنده ما أخبر به عن نفسه.

الذنب يقول لك: هذا ماضٍ وقع.

والوعد يقول لك: وهناك مستقبل لم يقع بعد.

ومن الخطأ أن تصدق الأول لأنه وقع أمامك، ثم تعامل الثاني كأنه احتمال ضعيف، مع أن الذي أخبرك به هو الله.

المؤمن لا يطمئن إلى نفسه.

يطمئن إلى ربه، ويقوم بما أمره ربه.

* * *

ومن أصرح ما يزيد هذا الرجاء ثباتًا أن القرآن لا يكتفي بأن يخبر أن الله رحيم، بل يقول: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: 54].

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 54].

هذا أوسع من أن تقول لنفسك: لعل الله يرحمني.

الله هو الذي أخبر أن ربكم كتب على نفسه الرحمة.

ثم لم يترك العبارة معلقةً حتى يجعلها المذنب غطاءً لما شاء، بل فتح داخل الجملة نفسها طريق الرجوع:

﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ [الأنعام: 54].

ثم: ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: 54].

تأمل كيف يجتمع في آية واحدة ما يحتاجه القلب: **سوء وقع، ورحمة كتبها الله، وتوبة، وإصلاح، ثم غفور رحيم.**

لا يُمحى السوء من النص كي يسكن القلب.

ولا تُمحى الرحمة كي يستقيم الخوف.

بل يعرف العبد خطأه، ويعرف طريقه، ويعرف ربه.

وهذا أصدق من كل طمأنة رخيصة؛ لأن القرآن لا يقول للمسيء: لم يحدث شيء. يقول له: حدث سوء، لكن الطريق إلى ربك لم يُغلق.

وإذا كان الإنسان أحيانًا يظن أن كثرة الذنب غيرت موقعه من الرحمة نهائيًا، يأتي خطاب أشد مباشرة: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53].

لم يقل: يا عبادي الذين لم يخطئوا.

قال: ﴿الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الزمر: 53].

الإسراف حاضر في الخطاب، ومع ذلك يأتي النهي: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 53].

لكن السورة لا تجعل قطع القنوط نهاية الطريق؛ تعقبه مباشرة بحركة: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر: 54].

فالقرآن لا يداوي المذنب بأن يخفف عنه حتى يبقى حيث هو.

يداويه بأن يمنعه من اليأس **حتى يستطيع أن يعود.**

وهذا فرق بالغ الأهمية في فهم وعد المغفرة: الرحمة التي يبنيها الوحي ليست وسادةً تحت الإصرار؛ هي باب يفتح للإنابة.

قد يقول لك القنوط: بعدما فعلت، بأي وجه ترجع؟

وتقول الآية: **ارجع لأن ربك هو الذي نهاك أن تقنط من رحمته.**

هنا لا يعود الرجاء مزاجًا متفائلًا عند بعض الناس؛ يصبح استجابةً لخبر الله وأمره.

* * *

وفي السنة يأتي هذا المعنى بصوتٍ يقترب من العبد اقترابًا شديدًا.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال الله تعالى: «يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي. يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي. يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لأتيتك بقرابها مغفرة»؛ أخرجه الترمذي (3540)، وقال: حديث غريب، وصححه الألباني.

يا ابن آدم.

النداء نفسه لا يبدأ من إنسان لم يذنب.

يخاطب ابن آدم الذي يضعف، ويخطئ، ويحمل ما كان منه.

ثم: «إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك».

لا يقول الحديث: ما دمت تتمنى المغفرة.

فيه دعاء.

وفيه رجاء.

ثم: «لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك».

الذنب يتضخم في عين صاحبه حتى يكاد يملأ الأفق، والحديث لا يصغر الذنب ليفتح الرجاء، بل يكبر أمامه سعة المغفرة.

ثم يبلغ الصورة أبعد: «لو أتيتني بقراب الأرض خطايا... لأتيتك بقرابها مغفرة».

ما أعظم الفرق بين قلب يقرأ ماضيه وحده، وقلب يقرأ ماضيه ومعه هذا الخبر عن ربه.

يقول: **ربي أعظم من ذنبي، وقد فتح لي بابًا أرجع منه.**

وهذا هو الرجاء الذي يصنعه الوعد: لا يخدّر القلب عن المعصية، يعيده إلى الله منها.

* * *

كلما ذكر ما كان منه، لم يقل فقط: يا ليتني لم أفعل.

يستطيع أن يقول أيضًا: **يا رب، أنت وعدت بالمغفرة، وأنا أرجع إليك.**

* * *

لكن القرآن لا يقف عند لفظ المغفرة وحده.

قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: 29].

وفي الآية وعد بالفرقان أيضًا، غير أن موضعنا هنا ما يتصل بالماضي الذي يحمله العبد : ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [الأنفال: 29].

ثم: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: 29].

ثم: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: 29].

التقوى لا تعني أن الإنسان دخل مستقبلًا بلا ماضٍ. قد يتقي الله اليوم وهو يعرف ما صنعه بالأمس. وقد يترك شيئًا يحبه لله، وفي قلبه حياء من أشياء مضت.

فتأتي الآية فلا تعده فقط بعون في الطريق الآتي؛ تفتح له بابًا يتعلق بما وراءه أيضًا:

تكفير السيئات.

ومغفرة.

وهذا من ألطف ما يصنعه الوعد بالقلب: لا يطلب منك أن تصلح المستقبل وأنت مربوط إلى الماضي بحبل من اليأس.

نتقي الآن.

والله أخبر بما يصنع بالسيئات لمن اتقاه كما قال. ليس عليك أن تمحو ماضيك بنفسك؛ هذا لا تملكه. عليك أن تدخل في الطريق الذي سماه الله، وترجو ما تكفل به الله.

والفارق بين الأمرين كبير.

من ظن أنه يجب أن يصبح أولًا إنسانًا بلا ماضٍ حتى يصلح للرجوع، فلن يرجع أبدًا.

أما من عرف أن من أسماء الطريق نفسه التقوى والاستغفار والعمل، وأن من موعوداته **التكفير والمغفرة**، فقد صار عنده سبب جديد لأن ينهض.

* * *

ثم يفتح القرآن بابًا آخر قريبًا من المغفرة، لكنه ليس مجرد مرادف لها.

قال سبحانه في وصف المؤمنين والمؤمنات: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 71].

﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: 71].

ما الذي يتغير في القلب حين يسمعها؟

أنت لا تمشي إلى الآخرة متكئًا على عملك كأنه ثمن يوجب لك على ربك العطاء.

تمشي إليه عبدًا يطيعه، ويرجو أن يكون من أهل الوصف الذي قال الله فيهم: **سيرحمهم الله.**

والرحمة هنا تغيّر حتى مذاق الطاعة. الصلاة ليست مجرد بند يؤديه العبد ليثبت أهليته. والزكاة ليست مبلغًا خرج وانتهى. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والطاعة ليست حركات معلقة في فراغ. قد يخاف المؤمن أن يكون عمله قليلًا. وقد يرى في نفسه من النقص ما يجعله يستحي أن يرفع رأسه.

والحياء محمود حين يعيده إلى الله، لكن لا ينبغي أن يتحول إلى اعتراض خفي على باب الرحمة الذي فتحه الله.

لست أنت الذي اخترع الرجاء.

الله هو الذي قال: ﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: 71].

فبدل أن تسأل نفسك طوال الوقت: هل أستحق أن أرجو؟

اسأل سؤالًا أعبد: **كيف أكون من أهل الوصف الذي وعدهم الله برحمته؟**

هكذا يتحول الوعد من تسكين نفسي إلى عبادة.

* * *

وفي آل عمران يأتي الوعد وسط تعب طويل.

قال سبحانه: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: 195].

الهجرة.

والإخراج من الديار.

والأذى.

والقتال.

والقتل.

ثم: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [آل عمران: 195].

كأن الآية ترفض أن يختزل المؤمن معنى العوض في أن يعود إليه في الدنيا ما فقده في الدنيا.

هناك شيء أعظم من استرجاع خسارة أرضية بعينها: **أن يتعامل الله مع سيئات العبد بالتكفير.**

فكم من إنسان ينظر إلى سنوات من نفسه ويقول: ما الذي يمكن أن يغير ما مضى؟

لن تعيد الزمن.

لكن الزمن ليس ربك.

وربك أخبر بالتكفير والمغفرة والرحمة لمن قام بالأوصاف والطرق التي سماها.

وهذه طمأنينة لا تستطيع الدنيا أن تعطي مثلها؛ لأن الدنيا قد تستطيع أن تعوضك مالًا بمال، أو وظيفة بوظيفة، أو فرصة بأخرى، لكنها لا تملك أن تمسح عنك خطيئة بينك وبين الله.

هذا باب لا يملكه إلا هو.

وهو الذي فتحه.

* * *

ولهذا ينبغي أن نعيد ترتيب معنى «الخير القادم» في قلب المؤمن.

ليس كل ما تنتظره من وعد الله تغييرًا في الظروف.

قد يكون من أعظم ما يأتيك أن يغفر لك.

أن يكفر عنك.

أن يرحمك.

أن يفتح أمامك فضلًا لم تحصره أنت في صورة واحدة.

وهذه المعاني لا تؤجل أثرها كله إلى الآخرة.

صحيح أن تمام المغفرة والجزاء يظهر في المآل، لكن الوعد بهما يعمل في القلب الآن.

المذنب الذي يعلم أن الله وعد أهل الإيمان والرجوع إليه بالمغفرة لا يعيش مثل من يظن أن كل باب قد أُغلق.

والمتقي الذي يسمع: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: 29] لا يمشي إلى الطاعة بالقلب نفسه الذي يمشي به من يظن أن ماضيه يطارده بلا منفذ.

ومن يرجو أن يكون من أهل ﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: 71] لا يقف أمام الله بعقلية الصفقة، بل بعقلية العبد المفتقر الذي يعمل ويرجو رحمة ربه.

وهنا يظهر الفرق بين الرجاء الذي يبنيه الوحي والطمأنة التي يصنعها الإنسان لنفسه.

الطمأنة المصنوعة تقول أحيانًا: لا تخف، أنت بخير.

أما الوحي فيقول شيئًا أصدق وأقوى:

قد تخاف، وقد يكون عندك ما يستحق الخوف، **لكن الله وعد أهل الإيمان والرجوع بالمغفرة، وفتح باب الرجوع، وسمّى طريقه.**

فلا تهوّن الذنب.

ولا تجعل كثرة ذنبك حجةً على ضيق مغفرة الله.

لا تمنح نفسك ضمانًا لم يمنحك إياه النص.

ولا تحرم نفسك رجاءً منحه الله لأهل وصفه.

هنا يستقيم القلب بين طرفين:

لا أمن يفسد التوبة.

ولا يأس يقطعها.

بل خوف يعرف الذنب، ورجاء يعرف الرب.

* * *

وهكذا تتغير هيئة العبد أمام ربه:

يعرف ذنبه فلا يهوِّنه، لكنه لا يسمح لماضيه أن يغلق ما فتحه الله من المغفرة والرحمة والفضل. ويعرف أن الرجوع ليس طمأنة اخترعها لنفسه، بل طريقًا شرعه ربٌّ يعلم ما كان منه، ثم دعاه إليه ووعده بما وعد.

قد تقع الليلة في سجودك وتتذكر شيئًا تمنى لو لم يكن.

لن تستطيع أن تجعله لم يقع.

لكن تستطيع أن تجعل ذكره يقودك إلى الباب الذي فتحه الله بدل الباب الذي يغلقه القنوط.

تدعو.

وترجو.

وتستغفر.

وتتقي.

وتعمل.

لا لأن عملك يوجب على الله شيئًا من عندك.

بل لأنه **هو الذي شرع الطريق، وهو الذي وعد.**

فإذا جاءه قول الله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ.. لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ [المائدة: 9]

لم يحتج قلبه أن يخترع طمأنينةً ولا يقينًا من عند نفسه.

احتاج أن يصدق.

وأن يرجع.

* * *

لكن ماذا لو كان خوف العبد ليس من ماضيه وحده؟

ماذا لو قال: أرجو أن يغفر الله لي، لكنني أخاف أن أضل الطريق من هنا؟

أخاف أن أحتار.

أن لا أعرف القرار الصحيح.

أن أبدأ ثم أضعف.

أن تكون المشكلة في بصيرتي أنا، لا في الظروف حولي.

القرآن لا يترك هذا الخوف بلا موعود أيضًا.

وفي الآية نفسها قال سبحانه: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: 29].

وفي موضع آخر: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69].

فبعد وعد الله بما يفعله مع ذنبك، يفتح بابًا آخر:

ماذا وعد الله أن يصنعه في هدايتك وسيرك؟

لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا [العنكبوت: 69]

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69].

هذه ليست آيةً عن الطريق وحده، إنها وعدٌ من الله لمن وصفهم بالمجاهدة فيه: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69].

وقد يكون هذا من أهدأ الوعود التي يسمعها عبدٌ نظر إلى ما بقي من عمره فخاف من نفسه. فليس كل خوفه مما وراءه، قد يكون قد رجع من ذنب، ورجا المغفرة، ثم رفع رأسه إلى الطريق أمامه وقال: أخاف أن أضل، أو أحتار، أو لا أميز، أو أعرف الحق ثم يضعف قلبي عن الثبات عليه.

الإنسان لا يحتاج إلى ربه لأن الأسباب حوله ضعيفة فحسب، يحتاج إليه لأن قلبه نفسه ليس في يده كما يتوهم. كم من أمر رآه واضحًا، ثم دخل عليه الهوى فغيّر ألوانه. وكم من طاعة أحبها ساعة، ثم ثقلت عليه ساعة أخرى. وكم من نية ظنها صافية، ثم احتاج بعد زمن أن يفتش فيها من جديد.

ولهذا يبقى المؤمن في قلب صلاته يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6]. يقولها وهو مؤمن، ويكررها ما دام حيًّا، لأن الهداية ليست رصيدًا أُخذ مرةً ثم استغنى صاحبه عن ربه. كل خطوة إلى الله تكشف فقرًا جديدًا إلى الله.

وجاءت السنة بهذا الافتقار على لسان من كان أعرف الخلق بربه وأثبتهم على دينه. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، رواه الترمذي (2140)، وقال: حديث حسن. فإذا كان هذا دعاء النبي صلى الله عليه وسلم، فليس خوف المؤمن من تقلب قلبه علامةَ ضعفٍ يجب أن يخفيها، وإنما الخطر أن يعرف تقلب القلب ثم يتكل عليه.

ثم تأتي الآية فلا تترك هذا الخوف وحيدًا: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ [العنكبوت: 69]، ثم ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69]. هناك عبد يجاهد، وهناك رب يهدي. لم يُجعل السعي بديلًا من الهداية، ولم تُجعل الهداية عذرًا عن السعي.

والتعبير نفسه يرد الجهد إلى وجهته: ﴿فِينَا﴾ [العنكبوت: 69]. ليست كل مشقةٍ مجاهدةً في الله، ولا كل إصرار على طريقٍ دليلَ هداية. الموعود لقومٍ جعلوا جهادهم لله وفي طاعته، ثم لم يتعاملوا مع ما بقي من الطريق كأنه متروك إلى ذكائهم وقوتهم وحدهما.

قد تعرف أصل ما يجب، ولا تعرف كيف تنتقل إليه. تعرف أنك تحتاج إلى توبة، لكنك لا ترى بعد كيف تفك نفسك من عادة امتدت سنوات. تعرف أن هذا الباب من الخير أولى، لكنك تخشى ضعفك إذا طال الطريق. وقد تتشابك أمامك حقوق ومصالح لا تملك من أول لحظة خريطةً كاملةً لما ينبغي أن تفعله.

هنا لا تعدك الآية بأنك ستملك الخريطة كلها قبل أن تتحرك؛ تعدك بشيء أنفع لقلب العبد: أن المجاهدة الصادقة في الله ليست سيرًا في أرضٍ متروكة. تمشي بما بان لك من حقه، وتتعلم، وتسأل، وتراجع، وتبقى مفتقرًا إلى هدايته في الخطوة التي أنت فيها وما بعدها.

وقد يظن الإنسان في أول الطريق أنه يحتاج إلى الله حتى يصل إلى الطاعة، فإذا دخلها صار الأمر إليه. ثم يعرف نفسه أكثر، فيكتشف أن الثبات نفسه عطية، وأن الانتقال من خير إلى خير توفيق، وأن بقاء القلب على إرادة ما يحبه الله ليس أمرًا يضمنه العبد لنفسه.

ولهذا لم تختم الآية بالهداية وحدها: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69]. في الطريق هداية، وفيه معية الله للمحسنين، وفيه افتقار لا ينتهي. فلا يكون أمان المؤمن ناشئًا من قوله: سأحفظ نفسي بنفسي، بل من صدقه في المجاهدة واستناده إلى خبر ربه: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69].

* * *

يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا [الأنفال: 29]

في هذه الآية موعود آخر يمس موضعًا دقيقًا من خوف العبد: ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: 29].

قد لا يكون خوفك أن يغيب عنك الطريق كله، بل أن تتشابه عليك الطرق. كل جهة لها صوت، ولكل رغبة حجة تستطيع النفس أن تصوغها، والخوف والطمع قادران على أن يدخلا في قراءة الأشياء حتى يظن الإنسان أنه ينظر إلى الحق وحده.

وقد فسر أهل العلم الفرقان بمعانٍ منها المخرج والنجاة والفصل بين الحق والباطل. وهي معانٍ تجمعها هبة يحتاجها المتقي: ألا يُترك في التباسه، وأن يجعل الله له ما يفرق به ويخرج من الفتنة على بصيرة.

كم مرة يظن الإنسان أن أشد ما يخشاه هو أن تفوته فرصة، بينما حاجته الأعمق أن يعرف: هل هذه أصلًا فرصة تستحق أن يأسف عليها؟ وقد يخاف خسارة مال أو مكانة أو علاقة، بينما الخير له أن يرى أولًا: أي الطريقين أحب إلى الله؟

وتأتي دقة الآية من أنها لا تقول له: ثق بحدسك. تقول: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الأنفال: 29]، ثم تجعل ما بعد التقوى هبة: ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: 29].

وهنا يتغير الدعاء الذي يخرج من القلب. لا يقول العبد فقط: يا رب أعطني ما أريد. قد تكون حاجته قبل ذلك: يا رب أرني. لا تدع خوفي يسمى حكمةً وهو خوف، ولا رغبتي تسمى مصلحةً وهي رغبة، ولا شهرة الطريق تجعلني أخلط بين كثرة السالكين وصواب المسير.

وليس كل العطاء أن تتغير الأشياء من حولك. من أعظمه أن يصحح الله رؤيتك لها: أن تسقط عن عينك زينة كانت تحجب الحقيقة، وأن يصير فقدٌ كنت تراه نهايةً أهون عندك من فقد دينك، وأن تنكسر في قلبك هيبة شيء كنت تظن أنك لا تستطيع أن تعيش بدونه.

فأحيانًا لا تكون النجاة أن تزول الفتنة من حولك، بل أن يعطيك الله فرقانًا فلا تضيع داخلها.

* * *

فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى [الليل: 7]

وهنا ينتقل الموعود من أن ترى الطريق إلى أن تُيَسَّر له.

قد يعرف الإنسان الخير ولا تنقصه الحجة فيه، ثم يجد بين المعرفة والعمل مسافةً ثقيلة. يعرف أن الصلاة خير، والعفو خير، والصدق خير، وترك الحرام خير؛ لكن النفس لا تنهض دائمًا إلى ما تعرفه بالسهولة نفسها.

فيأتي الوعد: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: 7].

الله هو الذي تكفل بالتيسير، والموعود هنا ليس أن تصبح الحياة كلها رخاءً، ولا أن تزول من الطاعة كل كلفة؛ إنما أن يهيئ العبد لطريق اليسرى، وأن يوفقه للعمل الذي يرضيه.

وهذا موعود يغير معنى النجاح نفسه. قد يدخل إلى بيتك مال، وتفتح لك فرصة، ويقوى سبب من أسبابك؛ وكل ذلك نعم. لكن هناك نعمةً تقع في موضع أعمق: أن يصبح الخير أيسر على قلبك، وأن تلين نفس كانت تتثاقل، وأن تفتح جوارحك لطاعة كانت شاقة عليها.

عينٌ كان صرفها عن الحرام يحتاج معركة، ثم يرزقها الله عفة. ولسان كان يعسر عليه أن يقول كلمة الحق، ثم يطلقه الله بها. وقلب كان يدخل الصلاة مثقلًا، ثم يفتح الله له فيها باب أنس. هذه ليست أشياء تقع حول العبد؛ إنها مما يقع فيه.

وقد تبقى المشقة؛ فالطريق الذي قال فيه ﴿جَاهَدُوا فِينَا﴾ [العنكبوت: 69] لا يتحول إلى طريق بلا مجاهدة. لكن من التيسير أن يقويك الله على ما يشق، وأن يقرب إلى قلبك ما كان بعيدًا، وأن يجعل الطاعة بعد طول حملٍ مما تستريح إليه.

وحين يسمع العبد هذا، لا يعود ينظر إلى توفيقه كأنه ملكه الخاص. يعطي، ويتقي، ويصدق بالحسنى، ثم يرجو موعود ربه. يعمل، لكنه لا يستغني بعمله. ويحمل نفسه، لكنه يعرف أن الذي ييسرها لليسرى هو الله.

ولهذا كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا»؛ رواه مسلم (2722). ما أعبد هذه الهيئة: يأخذ العبد بالتقوى، ويسأل الله أن يؤتي نفسه تقواها، يزكيها بما شرع، ويعرف أن الله خير من زكاها.

أنت تحتاج ربك حتى في الطريق إليه.

* * *

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ [البقرة: 152]

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152].

ثم يفتح القرآن بابًا ألطف من الحديث عن القدرة على السير والتمييز بين الطرق. هنا الموعود يمس الصلة نفسها بين العبد وربه: تذكره، فيخبرك أنه يذكرك.

مر على الكلمة ببطء: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152].

كم ينفق الإنسان من عمره في طلب أن يكون مذكورًا: عند من يحب، وفي مجلس خرج منه، وفي مكان عمله، وفي أثر يرجو أن يبقى. وقد يعمل خيرًا ثم يدخل عليه الحزن لأن أحدًا لم يره، أو لأن ما صنعه لم يرفع اسمه كما ظن.

ثم يقول رب العالمين: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152].

لا يصير ذكر الناس بلا قيمة، ولا يطلب المؤمن أن يكون مذمومًا بينهم؛ لكن مركز القلب يتغير. ما رتبة أن يذكرك الناس أمام أن يذكرك رب الناس؟ وما قيمة أن يبقى اسمك على ألسنة تغيب وتموت إذا أصلحت ما بينك وبين من لا يغيب عنه شيء؟

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: «فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»؛ متفق عليه (البخاري 7405، ومسلم 2675).

قد تكون وحدك في غرفة لا يلتفت إليك فيها أحد، فيمر اسم الله على قلبك أو لسانك. لا يتغير في ظاهر الغرفة شيء، لكن العالم الذي وصفه لك الوحي أوسع من الغرفة: عبد ذكر ربه، وربه أخبر أنه يذكره.

عند هذا الموضع لا تعود العبادة حركةً يرسلها الإنسان إلى كون صامت. الذكر صلة، وقد جعل الله للذاكر فيه هذا الموعود. ومن وعود الله ما لا يضع في يدك شيئًا، لكنه يضع قلبك في موضع لا تساويه أشياء كثيرة تمسكها اليد.

* * *

أَسْتَجِبْ لَكُمْ [غافر: 60]

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60].

ومع الذكر يفتح الله للعبد باب السؤال، ولا يتركه بلا خبر عما وراء دعائه: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60].

ابدأ من أول الجملة: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾ [غافر: 60]. لم تبتكر أنت باب الدعاء، ربك هو الذي دعاك إليه. ولم يقل لك: ادع ثم علق قلبك في فراغ لا تدري أضاع صوتك أم بلغ. قال: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60].

ولهذا لا يكون الدعاء مجرد وسيلة للحصول على شيء، فالآية نفسها تسمي تركه استكبارًا عن العبادة. أنت تدعو لأنك عبد، ولأن الله ربك، ولأنك فقير ولو اجتمعت أسباب حاجتك بين يديك.

وقد يطول الدعاء حتى يبدأ الإنسان من حيث لا يشعر يضيق معنى الاستجابة بما عينه هو: بهذه الصورة، وفي هذا الوقت، ومن هذا الطريق. فإذا لم ير ما رسمه قال: أين الوعد؟

وهنا جاءت السنة تفتح معنى الاستجابة من داخل الوحي نفسه، لا من أمنية الداعي. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا». قالوا: إذًا نكثر. قال: «اللَّهُ أَكْثَرُ»، رواه أحمد (11133)، وإسناده جيد.

ما أوسع الفرق بين أن تجعل الصورة التي اخترتها أنت تعريفًا وحيدًا للاستجابة، وبين أن تتلقى معناها من رسول الله صلى الله عليه وسلم. قد تعجل لك، وقد تدخر لك، وقد يصرف عنك بها من السوء؛ وفي كل ذلك لم يذهب الدعاء إلى فراغ.

وفي الصحيحين قال صلى الله عليه وسلم: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي» (البخاري 6340، ومسلم 2735). فحتى تأخر ما تنتظره لا يحولك من الدعاء إلى محاكمة الوعد، تبقى عبدًا يسأل، وربك هو الذي يملك صورة الإجابة ووقتها وعاقبتها.

وهنا يمكن للقلب أن يسكن قبل أن تتغير حاجته. ليس لأنه استغنى عنها، بل لأنه لم يعد وحده معها. رفعها إلى من قال له قبل أن يرفعها: ﴿ادْعُونِي﴾ [غافر: 60]، وسمع منه: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60].

* * *

وحين تجتمع هذه الوعود، ترى أنها لا تصنع إنسانًا معصومًا من الخطأ، ولا قلبًا لا تعرض له حيرة، ولا طريقًا بلا مشقة. إنها تصنع شيئًا أصدق: عبدًا لا يُوكل إلى نفسه في قلبه وسيره وصلته بربه.

الفرقان لا يجعل كل خاطرٍ في النفس حكمًا من الله؛ يبقى المؤمن يتعلم ويسأل ويطلب الدليل، وقد يخطئ فيرجع. والهداية الموعودة لا تعني العصمة من كل زلة؛ وإنما تمنع أن يتصور المجاهد في الله أنه يسير بلا هداية من ربه. والتيسير لليسرى لا يمحو مشقة الطاعة؛ بل قد يكون من تمامه أن يقويك الله عليها. والاستجابة لا تعطي العبد حق أن يكتب على ربه صورة الجواب وموعده؛ فقد بينت السنة سعة ما يكون من الإجابة.

ثم يبقى على لسان العبد الدعاء الذي لا يستغني عنه ما دام حيًّا: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6].

يقوله بعد أن عرف أن ربه وعد بالهداية والفرقان والتيسير والاستجابة، لا لأن الطريق صار ملكه، بل لأنه صار أعرف بفقره إلى من يهديه فيه.

فإذا خاف من قلبه لم يحتج أن يثق بقلبه أكثر؛ احتاج أن يفتقر إلى ربه أكثر. وإذا تشابهت عليه الطرق لم يقدّس حدسه، بل اتقى وسأل. وإذا ثقلت الطاعة لم يترك المجاهدة، وإذا دعا لم يجعل الصورة التي اختارها حدَّ الاستجابة.

يمشي، وكل خطوة صادقة تعيده إلى الكلمة التي بدأ بها في صلاته: ﴿اهْدِنَا﴾ [الفاتحة: 6].

فالطريق إلى الله نفسه لا يُقطع بالاستغناء عنه.

* * *

ثم قد يسكن هذا الخوف، ويعرف العبد ما يرجوه من ربه في بصيرته وسيره، لكنه يرفع عينيه إلى حياته من حوله فيجد خوفًا من جنس آخر.

قد يعرف الطريق، ويريد أن يمشي فيه، ثم يغلق باب كان يعتمد عليه، أو يضعف سبب، أو يضيق رزق، أو تصبح الأيام نفسها أثقل مما ظن.

عندها لا يعود السؤال: هل سأعرف الطريق؟

بل: ماذا وعد الله حين تضيق عليَّ الحياة والأسباب؟

المَخْرَج والرزق والكفاية

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 2-3].

هذه الكلمات لم تنزل في حياةٍ ساكنة لا تعرف انكسار الأسباب. جاءت في سورة الطلاق، وسط أحكام الفراق والعدة والإمساك بالمعروف أو المفارقة بالمعروف والإشهاد؛ في موطن يمكن أن يجتمع فيه وجع القلب، واضطراب البيت، والخوف من الغد، وميل النفس إلى أن تختار تحت الضغط ما يريحها الآن.

وقبل الوعد مباشرة يقول الله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [الطلاق: 2]. ثم يأتي: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: 2].

فالموعود لا يجيء بعيدًا عن العبودية. يأتي في اللحظة التي قد تقول فيها النفس: أعرف حكم الله، لكنني أخشى كلفته. أعرف ما ينبغي أن أفعله، لكن ماذا يبقى لي إذا أغلقت بيدي الطريق الذي يبدو أسهل؟

وهنا لا يطلب منك القرآن أن ترى المخرج أولًا ثم تتقي. يضع التقوى في يدك، ويجعل المخرج من فعل الله: ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: 2].

وقد بقي المفسرون مع سياق الآية، ففسر بعضهم المخرج بما يجعله الله لمن التزم أمره في الطلاق، ونقل ابن كثير عن ابن عباس معنى أوسع: النجاة من كل كرب في الدنيا والآخرة، وعن الربيع بن خثيم: من كل شيء ضاق على الناس. يجتمع في ذلك معنى يحتاجه القلب: التقوى ليست بابًا يفضي إلى فراغ.

قد يفتح أمامك طريق يريحك في الظاهر، لكنك تعلم أن فيه ما لا يرضي الله.

قد يكون مالًا مشتبهًا، أو ظلمًا تستطيع أن تنتفع به، أو حقًّا لو أديته خسرت شيئًا حاضرًا، أو كلمة لو قلتها كما هي تحملت كلفتها.

في مثل هذا الموضع لا تكون التقوى فكرة جميلة؛ تكون اختيارًا له ثمن تراه.

ثم تسمع: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: 2].

المخرج ليس جائزةً على براعتك في توقع الطريق. هو مما تكفل الله به. قد يغلق أمامك باب كنت تظن أنه لا بديل له، فيبقى الفرق بين المؤمن وغيره أن الباب المغلق لا يصير في قلبه آخر أبواب الله.

هذا لا يجعل الضيق خيالًا. قد يكون حقيقيًّا، وقد يؤلم، وقد تحتاج معه إلى قرار صعب وصبر طويل. لكن الضيق نفسه لا يملك أن يكتب نهاية القصة.

* * *

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 3].

وللرزق خوفه الخاص؛ لأن أشياء كثيرة من حياة الإنسان تتعلق به. البيت، والأولاد، والعلاج، والديون، والقدرة على أن يبقى الإنسان عزيزًا لا يمد يده إلى الناس. فإذا اهتز مصدر رزق اعتاده، لم تهتز معه أرقام فقط؛ قد يهتز شعور كامل بالأمان.

والإنسان بطبعه يحسب. يعرف دخله، ويقدر نفقاته، ويتوقع ما يستطيع احتماله، ويبحث عن البدائل. وهذا من الأخذ بالأسباب، لا من ضعف اليقين.

لكن الله وضع في الآية كلمة تتجاوز حدود حسابك: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 3].

أنت تحسب ما تعرف. أما رزق الله فلا ينحصر في الشيء الذي دخل جدولك.

قد يعمل الإنسان سنوات من باب واحد حتى يلتصق في شعوره الرزق بذلك الباب. فإذا ضعف العمل أو تغيرت الظروف أحس كأن الرزق نفسه قد ضعف، مع أن الذي ضعف سبب عرفه، لا خزائن ربه.

الراتب سبب. والتجارة سبب. والمهنة سبب. ومن يعينك سبب. وهذه الأسباب نعمة، ولا يُطلب منك أن تزهد في إحكامها. لكن القلب يختل حين يتحول السبب من باب للرزق إلى تعريف للرزق كله.

وجاءت السنة بصورة لا تكاد تحتاج إلى شرح. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا»؛ رواه الترمذي (2344)، وقال: حسن صحيح.

تغدو.

تخرج وفي أول النهار بطونها خالية. لم يجعل توكلها بقاءً في الأعشاش، ولم يجعل خروجها استقلالًا بسعيها عن الله. سعت، ورزقها الله.

وهذه هيئة المؤمن في دنياه: يسعى ولا يعبد سعيه. يحسن السبب ولا يجعل السبب حسبه. يفتح الأبواب التي يستطيع، ويبقى قلبه متعلقًا بمن يملك الأبواب كلها.

* * *

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3].

هنا يصل السياق إلى كلمة هي في قلب هذه الطمأنينة كلها: ﴿حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3].

كافيه.

قد يملك الإنسان أسبابًا كثيرة ولا يصل إلى الكفاية في قلبه.

عنده مال، لكنه يرى احتمالات نفاده. وعنده عمل، لكنه يعرف أن الأحوال تتغير. وعنده من ينصره، لكنه يعلم أن الناس يعجزون.

وكلما أضاف سببًا ظهر له حد السبب، فطلب وراءه سببًا آخر.

الأسباب نافعة، لكنها لا تستطيع أن تقول لقلبك: أنا حسبك. لأنها لا تملك نفسها فضلًا عن أن تملك مستقبلك كله.

ولذلك لم يقل الله: ومن استكمل أسبابه فهي حسبه. قال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3].

قد يكون أمامك في يوم واحد أكثر من سبب: حساب ادخرت فيه، وخطة بديلة، وشخص تثق به، وخبرة بنتها سنوات. خذها كلها. لا يطلب منك التوكل أن تكسر ما أعطاك الله من أسباب. لكنه يطلب من قلبك ألا يسجد لها.

فإذا نجح السبب حمدت الله الذي أنفذه، وإذا ضعف لم يسقط معه الأصل الذي كنت تستند إليه.

﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3] لا تعني أن الحاجة لا تؤلم، ولا أن فقد العمل لا يخيف، ولا أن الإنسان لا يقلق على من يعول. معناها أعمق: أن وراء حاجتك ربًّا تكفل للمتوكل عليه بالكفاية، فلا يصبح ما في يدك هو آخر ما تعرف عن أمانك.

وربما لا يحتاج القلب في ساعة شديدة إلى أن يعرف الآن من أي باب سيأتي الفرج بقدر ما يحتاج أن يعرف إلى من يستند وهو لا يعرف.

﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3].

هذه ليست كلمة عن كثرة ما تملك. إنها كلمة عن ربك.

ثم يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 3].

فلا يوجد في العالم سبب يخرج من ملك الله حتى يعترض أمره من خارج.

ولا يحتاج العبد مع هذا اليقين أن يفرض على ربه صورةً أو ساعةً بعينها، يكفيه أن الله بالغ أمره، وأن للأشياء أقدارها التي يعلمها.

* * *

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: 4].

وقد لا يكون الذي يحتاجه العبد مخرجًا من أزمة تنتهي، بل يسرًا داخل الأمر الذي لا يزال يعيشه.

هناك مراحل من الحياة لا تختصر في باب يفتح أو يغلق. مسؤوليات متشابكة، وحقوق ينبغي أن تؤدى، وقرارات ثقيلة، وأيام يمر فيها الإنسان من واجب إلى واجب وهو يشعر أن الأمر كله صار كتلة من العسر.

ثم تأتي الآية: ﴿يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: 4].

الله هو الذي يجعل.

ولا يلزم أن تعين موضع اليسر قبل أن يظهر، يكفي أن الله سماه يسرًا، وهذا القدر وحده يسع القلب.

والأشد وقعًا أن الوعد جاء مع التقوى. ففي بعض المواطن يكون الطريق المخالف أيسر في اللحظة: كلمة غير صادقة تخرجك من حرج، أو حق تؤخره لتحتفظ بشيء، أو تنازل عن حكم الله لأن النفس تخشى كلفته. عندها تبدو التقوى عسرًا قريبًا.

لكن القرآن لا يقيس الطريق من أول خطوة فيه فقط: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: 4].

تطيع لأن الله أحق أن يطاع، لا لأنك عقدت معه صفقة تعويض عاجل. ثم تمشي وقلبك يعرف أن التقوى ليست شيئًا يذهب في فراغ.

* * *

﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: 5].

والعجيب أن السورة بعد أن دخلت مع الإنسان إلى خوف المخرج والرزق واليسر لا تترك أفقه محبوسًا في الدنيا.

قد يكون أكبر ما يشغلك في موقف ما: ماذا سأخسر؟ كيف أخرج؟ هل يكفيني ما عندي؟ ثم يفتح الله وراء هذه الأسئلة بابًا آخر: ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: 5].

فليست كل ثمرة للتقوى شيئًا تستطيع أن تضعه في حسابك اليوم. في الطريق نفسه تعامل من الله مع سيئاتك، وأجر يعظمه لك.

وهذا يحفظ القلب من أن يحول الوعد إلى معادلة ضيقة: تركت شيئًا لله، إذن يجب أن أسترد مثله مالًا أو فرصةً بعد أيام. ما تكفل الله به أوسع من صورتك، وأبقى من الحساب القريب.

* * *

لكن الحياة ليست سلسلة أزمات منفصلة، لكل واحدة منها مخرج ثم تنتهي.

قد لا يكون سؤالك اليوم عن باب أغلق. قد تنظر إلى حياتك كلها فتجد أنها لا تشبه الصورة التي كنت تظن أن السعادة لا تكون إلا بها.

فيها نعمة ونقص. صحة في جهة وألم في أخرى. أناس تحبهم وأشياء فقدتها. سعة في باب وضيق في باب. وقد لا تستطيع أن تقول: إذا انحلت هذه المشكلة وحدها استقامت الحياة كلها.

فهل يمكن لهذه الحياة، بما فيها، أن تكون طيبة؟

فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً [النحل: 97]

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97].

تعددت عبارات السلف في هذه الحياة الطيبة: فقيل القناعة، وقيل الرزق الحلال، وقيل السعادة، وقيل حياة المؤمن على الطاعة؛ واختار الطبري القناعة، ورأى أن من قنعه الله بما قسم له لم يستعبده طلب ما فاته. وهذه العبارات، على تنوعها، تمنع شيئًا واحدًا: أن نختزل طيب الحياة في كثرة ما يملكه الإنسان.

لو كان الطيب مرادفًا لوفرة المال وحدها، لكان أكثر الناس مالًا أطيبهم عيشًا بالضرورة، وليس الواقع ولا الوحي يقولان ذلك.

الأشياء تستطيع أن توسع المسكن، لكنها لا تخلق وحدها سعة الصدر. تستطيع أن تكثر الخيارات، لكنها لا تعطي القلب وحدها معنىً يعيش له. وقد يحصل إنسان على شيء كان يظن أن وصوله إليه سيغلق باب القلق نهائيًّا، ثم يكتشف أن القلب حمل قلقه معه إلى النعمة الجديدة.

والآية لا تطلب منا في الجهة الأخرى أن نسمي الألم راحة.

حياة الأنبياء والمؤمنين الذين قص القرآن خبرهم عرفت المرض والخوف والفقد والأذى. فالطيب الذي وعد الله به أوسع من أن يكون غياب كل ما يؤلم.

يمكن أن يبكي المؤمن وتبقى حياته طيبة. ويمكن أن يمرض ولا ينقلب وعد الله إلى غير حق. ويمكن أن يضيق عليه باب من الدنيا وفي قلبه من معرفة الله، والقناعة به، وحلاوة طاعته، وبركة ما بقي له، ما يجعل للحياة طعمًا لا تصنعه وفرة الخارج وحدها.

وهنا جاءت السنة لا بصورة إنسان لا يمسه شيء، بل بصورة مؤمن يمر بالسراء والضراء كلتيهما. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»؛ رواه مسلم (2999).

سراء وضراء.

الحياة لم تصبح من لون واحد. الذي تغير هو ما يصنعه الإيمان بالحالين.

في السراء شكر، فلا تفسد النعمة صاحبها. وفي الضراء صبر، فلا يصير الألم طريقًا يقطعه عن ربه. ومن هنا نفهم كيف تكون الحياة الطيبة وعدًا حقيقيًّا من غير أن نحولها إلى حياة لم يعرفها المؤمنون أنفسهم: حياة بلا فقد ولا مرض ولا دمعة.

طيب الحياة ليس أن تحصل دائمًا على الصورة التي اخترتها؛ من طيبها أن تعرف ربك داخل الصورة التي قدرها.

* * *

ثم قد لا تكون حاجتك في لحظة أخرى إلى أن تنظر لما فقدت، بل إلى أن ترى ما بقي.

لَأَزِيدَنَّكُمْ [إبراهيم: 7]

قال موسى لقومه وهو يذكرهم بنعمة الله ونجاتهم من آل فرعون: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7].

﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7].

الشكر يبدأ من شيء موجود بالفعل: نعمة سبقتك من الله.

وهذا وحده يعالج هيئةً شائعة في القلب حين يخاف المستقبل؛ إذ يظل يعد ما ينقصه حتى تكاد النعم التي بين يديه تختفي من نظره. يريد بابًا جديدًا، فينسى الأبواب المفتوحة. يخاف نقص المال، فيغيب عنه ما أعطي من صحة أو أهل أو علم أو ستر أو إيمان. ليس لأن الناقص غير مهم، بل لأن الخوف قادر على أن يملأ المشهد كله به.

فيعيده الشكر إلى الحقيقة: ما عندي ليس حقي على الله، بل نعمته.

ثم لا يقف الخبر عند حفظ الموجود: ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7].

فسر الطبري الزيادة هنا بزيادة نعم الله على ما أعطى. ولم تعين الآية للعبد أن يحصر الزيادة في نوع يختاره هو. وهذا من جمالها: تشكر نعمة الله كما هي، وتفتح قلبك لوعده بالزيادة كما قاله.

ليس الشكر حيلةً للحصول على المزيد. لو صار كذلك، عاد القلب إلى نفسه وهو يظن أنه عاد إلى الله. الشكر عبادة تعرف المنعم، وتثني عليه، وتستعمل نعمته فيما يحب؛ ثم فوق هذه العبودية خبر يهج القلب:

﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7].

تستطيع أن تكون شاكرًا وأنت تسأل الله المزيد، وأن تكون راضيًا بنعمته وأنت تدعوه أن يوسع عليك.

ليست القناعة موت الرجاء، وليست الرغبة في الفضل جحودًا لما في اليد.

الذي يصلح الاثنين أن يبقى القلب عارفًا بمن أعطى أولًا، ومن يملك الزيادة آخرًا.

وقد تأتي ليلة لا يتغير فيها شيء مما كنت تنتظر تغيّره.

الباب ما زال مغلقًا. والحساب ما زال أقل مما يطمئنك. والخطة لم تعد كما رسمتها.

تنتهي من حساب الأسباب، وتبقى كلمة لا يستطيع الحساب أن يكتبها: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3].

لا تلغي ما في يدك من أسباب، ولا تطلب منك أن تسمي الضيق سعة. لكنها تمنع الأسباب كلها أن تحتل في قلبك موضع من يكفيك.

وحين يصل القلب إلى هذه الكلمة، يستطيع أن يهدأ قبل أن تتغير الظروف: ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3].

* * *

لكن بعد أن يهدأ خوف العبد على نفسه وحياته، يبقى خوف من جنس آخر.

قد يتقي، ويعمل، ويبذل، ويزرع في بيت أو علم أو دعوة أو إصلاح، ثم تمضي الأيام ولا يرى من الثمرة ما كان يرجوه.

حينها لا يكون السؤال: من أين يأتي رزقي؟

بل: أين يذهب ما عملته؟

إذا لم أره يكبر، ولم يعرفه الناس، وربما انتهى عمري قبل أن أعرف أثره، فهل يمكن أن يضيع عند الله؟

إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا [الكهف: 30]

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: 30].

هذه كلمة يحتاجها من يعمل لله ثم لا يجد في الدنيا مرآةً صافية تريه قدر ما بذل.

قد يربي سنوات، ثم يبقى في ولده ما يؤلمه. وقد يعلّم، ولا يدري أي الكلمات بقي وأيها مرّ. وقد يصلح في موضع لا يعرف الناس كم كلفه إصلاحه. وقد تقع طاعة كاملة بينه وبين الله: نظرة صرفها، وكلمة أمسكها، ومال أخرجه في خفاء، ودمعة لم يرها أحد.

وفي مثل هذه الأعمال لا يكون السؤال دائمًا: هل نجحت؟ أحيانًا ينزل السؤال إلى موضع أعمق: هل ضاع شيء مما كان لله؟

القرآن لا يجيب بأن الناس سيعرفون يومًا، ولا بأن كل أثر صالح سيظهر لصاحبه في الدنيا. يضع العمل في موضع أعلى من شهادة الناس ومن صورة النتيجة، ويقول: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ [الكهف: 30].

قف عند الفاعل: ﴿إِنَّا﴾ [الكهف: 30]. أنت لا تحفظ أجرك، ولا ذاكرة الناس تحفظه، ولا النتيجة التي ظهرت في الأرض هي التي تمنحه البقاء. الذي تكفل ألا يضيع أجر العمل المحسن هو الله.

ولهذا لا يحتاج العامل إلى أن يحمل عمله معه كل يوم ليتأكد أن أحدًا ما زال يذكره. الناس ينسون، وقد لا يعرفون أصلًا. يرون الفعل ولا يرون ما قاومه صاحبه حتى فعله، ويرون النتيجة ولا يرون طول الصبر قبلها، وقد ينسبون الفضل إلى غير أهله. لكن شيئًا من ذلك لا يصل إلى الموضع الذي حفظ الله فيه العمل.

هذا لا يعفيك من سؤال الإحسان: هل كان العمل صالحًا؟ هل كان لله؟ هل أديته على الوجه المشروع وبأحسن ما استطعت؟ تلك أسئلة حياة، ويبقى المؤمن محتاجًا إليها. لكن إذا صح العمل، فليست الدنيا هي التي تقرر بعد ذلك هل صار له عند الله وزن.

قال الله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ [الكهف: 30].

* * *

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء: 94].

هنا يزداد الموعود دقة.

ليس فقط: لن يضيع.

بل: ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء: 94].

وقد فسر الطبري هذه الجملة بأن الله يكتب أعماله الصالحة كلها، فلا يترك منها شيئًا، ليجزيه على صغيرها وكبيرها، وقليلها وكثيرها.

ما الذي يخيف الإنسان في الضياع؟ أن تمضي اللحظة كأنها لم تكن. أن ينسى هو، ثم ينسى الناس، ثم تبتلع الأيام الموقف حتى لا يبقى له شاهد.

لكن نسيانك ليس محوًا من كتاب الله.

قد لا تذكر الآن معروفًا فعلته قبل أعوام. وقد تكون ليلة من ليالي عمرك قد انطفأت تفاصيلها من ذاكرتك، وفيها امتنعت عن معصية، أو أديت حقًا، أو قمت لله بطاعة لم يبق في ذهنك منها شيء. انتهت من ذاكرتك، ولم يلزم من ذلك أن تنتهي عند ربك.

﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء: 94].

وفي كلمة ﴿لَهُ﴾ [الأنبياء: 94] قرب لا ينبغي أن يضيع في الشرح. هذا السعي ليس رقمًا سائبًا في تاريخ البشر، هو مكتوب لهذا العبد. ما صح منه لله لا يحتاج أن يستعيده صاحبه من ذاكرته كي يبقى موجودًا.

وحين يستقر هذا، يخف على القلب عبء خفي: أن ينصب شاهدًا بشريًا إلى جوار كل خير. ليست العبادة محتاجة إلى جمهور حتى تثبت. يكفي أن الله علم، وكتب.

* * *

وفي سورة التوبة لا يكتفي القرآن بهذا التقرير، بل يفتح لنا صفحةً نرى فيها ما الذي يدخل في الكتاب.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 120-121].

هذه الآيات في سياق خروج المؤمنين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبوك؛ فلا نقتلع صورها الخاصة من سياقها ثم نجعل كل تعب بشري داخلًا في الوعد نفسه. لكن السياق يكشف لنا شيئًا بالغ الجمال في ميزان الله للعمل.

عدّ القرآن: ظمأ، ونصبًا، ومخمصة، وموطئًا، ونيلًا من عدو. ثم في الآية التالية: نفقة صغيرة أو كبيرة، ووديا يقطع.

أشياء قد يراها الإنسان تفاصيل على هامش الغاية الكبرى.

أما في النص فتعود الكلمة: ﴿كُتِبَ لَهُمْ﴾ [التوبة: 120-121].

العطش في الطريق لم يكن فراغًا بين عملين. والتعب لم يكن مساحةً لا حساب لها. والنفقة الصغيرة لم تبتلعها الكبيرة. حتى الطريق نفسه، بما فيه من قطع الوادي، دخل في الكتاب.

وهذا يصحح شيئًا في عين العامل: نحن أسرى الصورة النهائية. نحب العمل الذي يمكن عرضه، والإنجاز الذي له اسم، والنتيجة التي تُرى. أما القرآن فيريك أن الله يعلم ما يقع قبل الصورة وبعدها وتحتها: ما كلف الجسد، وما بذل المال، وما مضى من الخطوات في طاعته.

قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: 120].

فليس العمل محتاجًا أن يبدو كبيرًا في عينك حتى يكون محفوظًا عند الله. الصغير لا يضيع لصغره إذا دخل في وصف النص، والكبير لا يستغني بكبره عن الإيمان والإحسان.

* * *

ثم تأتي السنة بمشهد أصغر من أن يصنع لصاحبه اسمًا في الدنيا.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ، وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ»؛ متفق عليه: البخاري (652)، ومسلم (1914).

رجل لا نعرف اسمه.

وطريق.

وغصن شوك.

أزاحه، وانتهى المشهد في الأرض.

لو مر به إنسان من بعيد ربما لم ير أكثر من حركة عابرة. لكن فوق هذه الحركة التي تكاد لا تصنع خبرًا بين الناس جاء خبر من السماء: «فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ».

لا نحتاج أن نجعل كل فعل صغير مساويًا لهذا الجزاء بعينه، فالله أعلم بما قام في قلب الرجل وبحقيقة عمله. لكن المشهد يكسر ميزانًا خفيًا فينا: قدر العمل عند الله لا يساوي حجمه في أعين الناس.

قد يصغر العمل في الأرض، ولا يصغر عند رب الأرض.

* * *

كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا [الإسراء: 19]

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: 19].

هنا ينتقل القلب درجة أخرى.

كان الموعود قبل قليل: لا يضيع، ولا يكفر السعي، وهو مكتوب.

وهنا: ﴿كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: 19].

وقد فسر الطبري شكر الله لهذا السعي بحسن جزائه عليه.

فالعامل لا يضع طاعته عند رب يحفظها من الضياع فحسب؛ يضعها عند رب كريم يجزي عليها.

لكن القرآن، قبل أن يفتح هذا الباب من الرجاء، سمّى السعي الذي يتحدث عنه: ﴿أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ [الإسراء: 19]، و﴿سَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء: 19]، و﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء: 19].

وهذا مهم؛ لأن التعب وحده ليس عبادة، وكثرة الساعات ليست دليل قبول، وحسن نية صاحب المشروع لا يجعل كل طريق اختاره هو عين السعي الذي يحبه الله. الوحي يحفظ للقلب رجاءه، ويحفظ للعمل وصفه في الوقت نفسه.

لكن إذا اجتهدت أن يكون سعيك للآخرة وعلى طريقها كما شرع الله، فاسمع الكلمة كما هي: ﴿مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: 19].

كم يبحث الإنسان بعد التعب عن كلمة شكر.

قد يقول إنه لا يريدها، ثم تؤلمه غفلة الناس. وهذه النفس لا تصلح بعنف الإنكار؛ تصلح بأن يرتفع مركزها. فإن جاء شكر الناس فرح به من غير عبودية، وإن غاب لم يصبح العمل بلا صاحب.

ما الذي يساوي أن يقول الله عن سعي عباده: ﴿كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: 19]؟

هنا لا يحتاج العبد إلى أن يخاصم الناس كي ينتزع منهم الاعتراف بما فعل. له أن يطلب العدل، وله أن يبين الحق عند الحاجة، لكن قلبه لا يضع أجره في أيديهم.

ربه لم يغفل.

* * *

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: 195].

وفي آل عمران يأتي الجواب بعد دعاء المؤمنين، ثم تمضي الآية في أعمال ثقيلة: هجرة، وإخراج من الديار، وأذى في سبيل الله، وقتال وقتل.

وفي صدر الجواب: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾ [آل عمران: 195].

في السنة رأينا غصنًا أزيح من الطريق. وهنا نرى أعمالًا تغير العمر كله.

وفي الحالين لا يتغير الحافظ.

ليس اليسير أضيع عنده لأنه يسير، ولا العمل الثقيل يثبت عنده بكلفته وحدها. الله يعلم العمل، ويعلم صاحبه، ويعلم ما قام فيه من إيمان وإحسان وصدق.

وهذا يعيد ترتيب نظرتنا إلى الأيام العادية أيضًا.

ليست كل طاعة قصةً كبيرة.

الأم التي تعود إلى حاجة ولدها مرة بعد مرة. من يقوم على والد ضعيف في أعمال تتكرر حتى تبدو الأيام متشابهة. معلم يعيد الدرس لجيل جديد بعد أن قاله لمن قبلهم. إنسان يغلق باب حرام في خلوته، ولا يعرف أحد أن الباب كان مفتوحًا أصلًا.

في ميزان الحس قد تمر هذه الأشياء بلا عنوان. لكن غياب العنوان لا يعني غياب الكتابة.

﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء: 94].

* * *

لكن حفظ العمل عند الله لا يعني أن كل ما بذله الإنسان مقبول بمجرد بذله.

قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الكهف: 30].

وقال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الأنبياء: 94].

وقال: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء: 19].

فالوعد لا يحول كل مشروع نحبه إلى عمل مقبول عند الله، ولا يمنح كل وسيلة اختارها صاحبها قداسة لمجرد حسن قصده. قد نخطئ في الفهم، أو في الوسيلة، أو في مقدار الإحسان، ويجب أن نتعلم ونراجع ونصحح.

كما أن حفظ الأجر لا يساوي ضمان نجاح كل مشروع دنيوي بالصورة التي رسمناها. النتيجة في الدنيا تفيدك في التقويم: هل كانت الوسيلة نافعة؟ هل أخطأت؟ ما الذي ينبغي تغييره؟ فلا يجوز أن نستعمل وعد حفظ العمل لإغلاق باب التعلم.

لكن بعد هذا كله يبقى الموعود في موضعه: ما صح من العمل الصالح ودخل في وصف النص لا يحتاج إلى نجاحه الظاهر كي يصير محفوظًا عند الله.

تراجع وسيلتك، ولا تراجع صدق ربك. تصحح عملك، ولا تجعل تصفيق الناس شرطًا لقيمته. وتطلب الأثر، لكنك لا تجعل الأثر إلهًا للعمل. وقد ينتهي يوم كامل ولا تجد فيه شيئًا يستحق أن تحكيه للناس.

قمت بما عليك. أعدت عملًا تكرر مئة مرة. أمسكت كلمة لم يسمع أحد أنها كادت تخرج. خدمت من يحتاجك. أصلحت قدر ما استطعت، ثم غربت الشمس ولم تُفتح لك نافذة ترى منها أثر ما صنعت.

في ميزان الحس: يوم عادي.

لكن غياب العنوان لا يعني غياب الكتابة.

﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء: 94].

تنتهي اللحظة من ذاكرتك، ولا يلزم أن تنتهي عند ربك.

فلا تحمل عملك على ظهرك حتى يظل موجودًا. أحسنه، واسأل الله قبوله، ثم دعه عند من قال: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: 30].

* * *

ثم يرفع العامل رأسه من عمله الفردي إلى مشهد أكبر.

اطمأن أن ما صح من سعيه لا يضيع، لكن أمامه باطل له قوة، وحق يدفع، ومؤمنون قد يؤذون لأنهم آمنوا.

فهنا يتغير السؤال.

لم يعد: هل يحفظ الله عملي؟

بل: ماذا وعد الله حين يقف أهل الإيمان أمام قوة لا يملكون مثل أسبابها؟

والقرآن لم يترك هذا الخوف بلا موعود.

الدفاع والنصر

قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: 38].

في هذه الجملة شيء ينبغي أن يقع في القلب قبل كل شرح: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ﴾ [الحج: 38].

قد يخاف المؤمن هذه المرة لا من باب أغلق في رزقه، ولا من ضعف في نفسه، ولا من أن يضيع عمله؛ بل من قوة قائمة أمامه يراها بعينه.

قوة لها أثر.

وتستطيع أن تؤذي.

وقد تملك من الأسباب ما لا يملك.

وهنا يبدأ الامتحان في موضع دقيق؛ لأن الإنسان قد يبدأ من خبر صحيح ثم يضيف إليه ما ليس فيه.

يقول: هؤلاء أقوى مني.

وهذا قد يكون حقًّا.

ثم يتسلل إلى قلبه: إذن أنا وحدي.

ثم: إذن القوة التي أراها هي التي تكتب النهاية.

وهنا يقطع القرآن الطريق على هذه الزيادة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: 38].

الله هو الفاعل.

لم يقل: إن المؤمنين لا يواجهون خطرًا.

ولم يقل: إن خصومهم لا يملكون قدرة على الأذى.

قال ما هو أعظم من ذلك وأصدق: **الله يدافع.**

فالعبد ليس متروكًا لقوة خصمه، وليس العالم ساحةً مغلقة بين أسباب يملكها الناس وحدهم.

وربما كان أول ما يريح القلب هنا أن القرآن نفسه لا يحتاج إلى تزيين الواقع حتى يثبت هذا الوعد.

فالآيات التي تليها تقول: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: 39-40].

الظلم وقع.

والإخراج من الديار وقع.

وأناس قال الله إنه يدافع عنهم ذاقوا الأذى فعلًا.

وهذا يحرر معنى الدفاع من صورة هشة لا تحتمل أول جرح.

ليس معنى أن الله يدافع عن المؤمنين أن المؤمن لا يمسه ألم، ولا أن الباطل لا يقدر عليه في شيء.

ولو كان ذلك هو المعنى، لما اجتمع في السياق نفسه: ﴿يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: 38]

و: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ [الحج: 40].

قد يقع الأذى، ويبقى العبد في حفظ ربه.

وقد تضيق المرحلة، ولا تكون القوة التي آذته قد استقلت بالأمر.

وقد يخسر شيئًا عزيزًا، ولا يكون قد صار متروكًا.

ثم يقول الله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: 39].

هنا يعود كل شيء إلى رتبته.

الخصم يملك قدرةً محدودة.

أما الذي وعد بالنصر فهو القدير.

وما يعجزك لا ينتقل منه العجز إلى ربك.

ثم تمضي السورة فترد النصر إلى غايته، حتى لا يتحول في القلب إلى مجرد رغبة في غلبة من نكره.

قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40].

تأمل ما وضعه القرآن في قلب المشهد: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: 40].

فالغاية أكبر من ذاتك.

ليست القضية أن تنتصر لأنك لا تحتمل أن يغلبك أحد.

السؤال الأعبد: أين حق الله؟ ماذا أنصر؟ وما الذي يريد الله أن يبقى قائمًا؟

ولهذا قال: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: 40].

والله غني عن خلقه، وإنما ينصر العبدُ دينه ورسله وما أمر به، فيقوم بالحق الذي شرعه، لا بالهوى الذي سماه هو حقًّا.

ثم تأتي الأسماء في موضعها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40].

لا تعبر عليهما سريعًا.

الذي تخافه قد يكون قويًّا بالنسبة إليك.

أما الذي وعدك فهو **القوي**.

والذي أمامك قد يغلبك في موقف.

أما ربك فهو **العزيز** الذي لا يغلبه غالب.

ليس عليك إذن أن تصغر قوة خصمك حتى يعظم الله في قلبك.

تستطيع أن تقول: هذه قوة شديدة.

ثم تقول بقلب أشد ثباتًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40].

وفي سورة محمد يدخل العبد نفسه في الموعود: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7].

هذه ليست آيةً لمتفرج ينتظر أن يتحرك النصر نحوه وهو خارج التكليف.

﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ﴾ [محمد: 7].

ثم: ﴿يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: 7].

فالعبد يعمل، وربه ينصر.

والعبد يأخذ بما يستطيع من أسباب الحق، ولا يجعل أخذه بالأسباب مصدر النتيجة.

لا يقول: الله ناصر دينه، فلا شأن لي.

ولا يقول: لن يقوم الحق إلا بي.

كلاهما يضعه في غير مقام العبودية.

هو عبد مأمور، يقوم بما عليه، ثم يفتقر إلى ما لا يملكه.

لكن في الآية موعودًا آخر قد يكون في بعض الساعات أقرب إلى حاجة القلب من صورة النصر نفسها: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7].

فالإنسان حين يرى قوة أكبر منه لا يخاف النتيجة وحدها. قد يبدأ السقوط من الداخل قبل أن يقع شيء في الخارج. يبدأ حين تكبر قوة الخصم في القلب حتى يصغر الحق.

وحين تصبح الكلفة سببًا لتغيير أسماء الأشياء؛ فيسمى التراجع عن الواجب حكمة، والسكوت عن الحق تعقلًا، والجبن حسن تقدير.

هنا لا يحتاج العبد فقط إلى أن ينتصر في النهاية.

يحتاج أن يثبت الآن.

أن تبقى قدمه في الموضع الذي يرضي الله حين تضغط عليه نفسه ليفارقه.

أن يرى الخطر، ولا يسمح للخطر أن يعيد تعريف الحق.

وهذا أيضًا من الموعود: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7].

وفي السنة مشهد يجعل هذه الكلمة تُرى.

في يوم حنين استقبلت هوازن المسلمين بالنبل، فتراجع سرعان الناس، وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابتًا. يروي البراء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان على بغلته البيضاء، ثم نزل فاستنصر، وهو يقول: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ»؛ متفق عليه، رواه البخاري (2930) ومسلم (1776).

ليس المشهد درسًا في أن المؤمن لا يمر بلحظة اضطراب؛ الاضطراب وقع في الصفوف.

وليس درسًا في الاستغناء بالشجاعة عن الله؛ الحديث نفسه يقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم **استنصر.**

ثباتٌ في موضع الخطر. وافتقارٌ إلى الله في اللحظة نفسها. ثم عاد إلى ترتيب أصحابه. هكذا تجتمع العبودية: قلب لا يفر من ربه تحت ضغط المشهد، ويد تعمل بما تستطيع.

وعندها يصبح ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7] موعودًا لا يقل حاجة عن النصر؛ لأن أعظم خسارة قد تبدأ حين تسقط قدم القلب من موضعه قبل أن تنتهي المعركة في الخارج.

ثم يقول سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: 51].

توكيد يتتابع: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ﴾ [غافر: 51].

والنصر هنا لا يقف عند الدنيا: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: 51].

ومع ذلك، فالقرآن نفسه قص أن رسلًا ومؤمنين أوذوا، وأن من أهل الإيمان من قتل، وأن قومًا أخرجوا من ديارهم.

ولهذا ناقش المفسرون معنى هذه الآية؛ وذكر الطبري من وجوه النصر إظهار الرسل والمؤمنين على مكذبيهم، أو إهلاك المكذبين وإنجاء الرسل وأتباعهم، أو الانتقام ممن آذاهم ولو بعد موت بعضهم.

ومهما تنوعت الصور، يبقى الأصل الذي لا ينبغي أن يضيع:

النصر في القرآن أوسع من صورة واحدة نرسمها نحن.

وتبقى الحدود التي قالها القرآن نفسه:

ليس في هذه النصوص وعدٌ بأن كل مؤمن لن يصيبه أذى، ولا بأن كل منتسب إلى الحق غالبٌ في كل واقعة، ولا بأن كل جماعة تستطيع أن تضع اسمها في كل آية نصر. المخاطَب، والوصف، والشرط، والسياق باقية كما جاءت. وقد يقع قتل أو إخراج أو هزيمة جزئية، والقرآن نفسه شهد بذلك.

لكن هذه الحدود لا تسمح بالطرف الآخر أيضًا:

أن يتحول الأذى إلى حجة على أن الباطل صار صاحب الكلمة الأخيرة.

فقد قال الله، مع علمه بكل ما سيقع: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: 51].

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47].

هنا تستحق الكلمات أن يهدأ النص عندها: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47].

لم يكتب المؤمن هذا الحق على ربه.

الله هو الذي قاله.

وسياق الآية نفسه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما جرى للرسل من قبله مع أقوامهم؛ جاءوا بالبينات، وكُذّبوا، ثم جاء انتقام الله من المجرمين، ونجاة المؤمنين ونصرهم.

قد ترى قوة قائمة. وقد يطول سلطانها في عينك. وقد لا تعرف كيف تتغير الموازين. لكنها لا تملك أن تلغي جملة قالها الله. القوة تملك أن تؤذي في حدود ما أذن الله به. ولا تملك أن تصبح ربًّا للمستقبل.

وفي سورة يونس يأتي صدى من الباب نفسه: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 103].

السياق هنا مخصوص بإنزال العذاب بالمكذبين ونجاة الرسل ومن آمن معهم، فلا نساوي بينه وبين كل صورة نصر في القرآن.

لكن لفظ ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ [يونس: 103] يعود مرة أخرى، وهذه المرة مع النجاة.

وبعد اختلاف صور الدفاع والنصر والتثبيت والنجاة، لا يحتاج القلب إلى أن يعصرها في شعار واحد.

يكفيه أن تبقى الكلمة التي قالها الله عن نفسه، لا التي كتبها المؤمن لنفسه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47].

قد ترى قوة قائمة، وقد يطول سلطانها في عينك، وقد لا تعرف كيف تتغير الموازين. لا يطلب منك اليقين أن تصغرها أو تنكر أثرها.

يطلب شيئًا واحدًا: ألا تجعلها أكبر في قلبك من الذي قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40].

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47].

ليستخلفنهم في الأرض [النور: 55]

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 55].

هذه المرة لا تستطيع أن تقرأ الموعود كله بصيغة: أنا.

قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [النور: 55].

ثم قال: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ [النور: 55].

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ﴾ [النور: 55].

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ﴾ [النور: 55].

أمامك وعد يتجاوز الفرد.

ليس عن ذنبك وحدك، ولا قلبك وحدك، ولا رزقك وحدك، ولا عملك الذي تخشى أن يضيع. وليس عن خصم يقف أمامك أنت في موقف واحد.

هنا يتحدث القرآن عن جماعة من المؤمنين، وعن أرض، وعن دين يمكَّن له، وعن خوف يتبدل أمنًا.

وهذا الاتساع نفسه رحمة بالقلب.

فالإنسان إذا طال نظره إلى نفسه قد يظن أن مستقبل ما يحبه من الدين بحجم ما يملكه هو من قدرة. يرى قصر عمره، وقلة حيلته، وضآلة ما يصل إليه فعله، ثم ينظر إلى حاجات أكبر منه بكثير فيدخل إليه اليأس من الباب نفسه الذي دخل منه الحرص.

يقول: وما الذي تصنعه يد واحدة أمام كل هذا؟

فتأتي الآية ولا تضخم اليد.

توسع الأفق.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ [النور: 55].

هناك من مواعيد الله ما لا يستطيع فرد واحد أن يكون هو صورتها كلها.

وليس معنى ذلك أن نصيبه منها معدوم؛ بل أن الموعود أوسع من أن يُختزل فيه.

وهذه معرفة تريح العبد من حملٍ لم يضعه الله على كتفه: أن يظن أن قصة الدين تبدأ بعمره وتنتهي بموته، أو أن ما لا يستطيع هو إنجازه لا يستطيع الله أن يجريه في أمة وأجيال وأسباب لا يملكها فرد واحد.

أنت جزء من قصة أكبر منك.

وهذا لا يصغرك حتى تنطفئ.

بل يردك إلى موضعك الصحيح.

* * *

دع الآية أولًا تقول موعودها كاملًا.

﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: 55].

ثم: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ [النور: 55].

ثم: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: 55].

استخلاف.

وتمكين للدين.

وأمن بعد خوف.

لا ينبغي أن نصغر هذه الكلمات خوفًا من سوء استعمالها.

الله هو الذي قالها.

وليس من الأمانة مع الوحي أن نحذف من الوعد ما صار الناس يسيئون فهمه، كما ليس من الأمانة أن نزيد عليه ما لم يقله.

لكن القرآن نفسه لا يتركك تحدد معنى العظمة من عندك.

بعد الاستخلاف والتمكين والأمن قال: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: 55].

هنا قلب الوعد.

وقد تسبق العين إلى الكلمات التي لها صورة كبيرة في الأرض: استخلاف، وتمكين، وأمن. ثم تمر سريعًا على العبارة التي من أجلها استقامت الصورة كلها: ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ [النور: 55].

تمهل هنا.

لماذا يريد المؤمن أمنًا؟

ولماذا يفرح بتمكين الدين؟

ولماذا تكون القوة نعمةً في ميزان الوحي؟

لأنها إذا استقامت على مراد الله فتحت للعبودية مجالها، وأقامت الحق، وحفظت ما أمر الله بحفظه، ورفعت عن الناس من الخوف ما يعوقهم عن دينهم وحقوقهم.

ما أعظم أن يرد القرآن القوة كلها إلى السجود.

يُستخلفون في الأرض، ثم تكون غاية الاستخلاف أن يعبدوا رب الأرض.

يمكَّن لدينهم، فلا يكون التمكين منصةً لافتتانهم بأنفسهم، بل فسحةً لإقامة ما ارتضاه الله.

يبدل الخوف أمنًا، فلا يصير الأمن باب غفلة، بل بيئةً أطهر للعبادة.

وهنا يبدأ الوعد في إصلاح أحلام المؤمن نفسها.

فقد يظن أنه يطلب قوة للدين، بينما قلبه يطلب شيئًا من عظمة الجماعة لنفسه.

وقد يقول إنه يريد تمكينًا، لكن ما يملأ خياله هو الانتصار على الآخرين أكثر من إقامة حق الله.

والآية تنقي المراد بجملة واحدة: ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ [النور: 55].

إذا لم تعد القوة إلى هذه الكلمة، بدأت تتحول من نعمة إلى فتنة.

* * *

وفي الآية نفسها كلمة أخرى تستحق أن تُعاش: ﴿مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: 55].

هناك خوف سابق.

فالقرآن لا يصنع صورة لجماعة لم تعرف ضعفًا ولا تهديدًا. المخاطبون الأوائل عرفوا الخوف، ثم جاء الوعد بتبديله أمنًا.

والخوف هنا أوسع من خوف المواجهة في اللحظة الواحدة.

هل يبقى الخوف هو الصورة الوحيدة الممكنة لجماعة المؤمنين؟

تقول الآية: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: 55].

الخوف حال.

وليس اسمًا أبديًا للمستقبل.

وقد تطول حال حتى ينسى من عاش داخلها أنها حال أصلًا. يولد جيل في ضعف، ويكبر فيه، ويسمع حديث الذين قبله عنه، ثم تتسلل الصورة من الخارج إلى الداخل: هكذا نحن، وهكذا سنبقى.

لكن الوحي لا يجعل الخوف معنىً لازمًا بذاته لقيام الدين وأهله.

فهذه الآية أخبرت عن مخاطَبيها بوعدٍ صريح: أن يبدلهم الله من بعد خوفهم أمنًا.

ولا يبيح لك ذلك أن تجعلها موعدًا لجيلك، أو أن تنقل صورتها إلى كل سياق من غير دليل.

لكنه يمنع أن تتحول صورة الخوف التي تراها إلى حدٍّ لقدرة الله أو إلى حكمٍ على كل ما يمكن أن يجريه.

فالله نفسه قال في الخبر الذي بين أيدينا: ﴿أَمْنًا﴾ [النور: 55].

فالحاضر ليس كل القصة.

* * *

ثم يأتي السؤال الأقرب إلى الفرد:

إذا كان الوعد أكبر مني، فما موضعي أنا؟

الجواب لا يبدأ من حجم قدرتك.

يبدأ من أول الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [النور: 55].

أنت لست الأمة كلها.

ولست مطالبًا أن تكونها.

لكنّك لست خارج الوصف الذي بُني منه الوعد.

وهذا موضع جميل من العبودية: أن تعرف صغرك من غير أن تحتقر مسؤوليتك.

لا تقول: المستقبل كله على كتفي.

ولا تقول: أنا فرد، فلا شأن لي.

لك نفس تستطيع أن تقيمها على الإيمان.

وبيت تستطيع أن تجعل فيه طاعةً لله.

وعلم تستطيع أن تتعلمه أو تعلمه.

وحق تستطيع أن تؤديه.

وأمانة تستطيع ألا تخونها.

ومعروف تستطيع أن تقيمه في الموضع الذي تبلغ إليه يدك.

يعود إليك سؤال تستطيع أن تعبد الله به اليوم:

هل أقوم أنا بما جعل الله تحت يدي؟

* * *

وجاءت السنة بصورة بسيطة لهذا المعنى.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا». وفي لفظ البخاري: «ثُمَّ شَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ»، رواه البخاري (6026)، وأصل الحديث في مسلم (2585).

البنيان لا تقوم به لبنة واحدة. لكن هذا لا يجعل اللبنة بلا معنى. وفي هذا التشبيه راحة من وهمين متقابلين. لا أنت البناء كله. ولا أنت حجر ملقى خارجه.

قد يكون موضعك علمًا يثبت إنسانًا، أو تربيةً تبني قلبًا، أو أمانةً تحفظ بها حقًا.

لا تحتقر هذا لأنه لا يحمل اسمًا ضخمًا.

البناء لا يبدأ لافتةً.

يبدأ أجزاءً تستقيم في مواضعها ويشد بعضها بعضًا.

أما العبودية فأهدأ من ذلك:

كن صالحًا في موضعك.

وشد ما تستطيع أن تشده.

ودع للبنيان ربًّا أوسع علمًا وقدرةً من كل لبنة فيه.

* * *

ثم يصف القرآن أهل التمكين في موضع آخر: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: 41].

تأمل أول ما يأتي بعد: ﴿مَكَّنَّاهُمْ﴾ [الحج: 41].

﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الحج: 41].

ترتفع قدرتهم في الأرض، وتنخفض جباههم لله. هذه وحدها صورة لا ينبغي المرور بها سريعًا. التمكين في القرآن لا يخرج الإنسان من العبودية إلى الإعجاب بالقدرة. يدخله في عبودية أخرى أشد مسؤولية. في الضعف قد يقول الإنسان: لو قدرت لفعلت. فإذا قدر، بدأ الامتحان الحقيقي لتلك الجملة.

ماذا فعل بالصلاحية التي صارت في يده؟

هل أقام بها حقًا؟

هل زاد قربًا من الله؟

هل حملته القدرة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أم جعلته أكثر انشغالًا بصورة قوته؟

ولهذا لا ينبغي أن نتعامل مع التمكين كجائزة ينتهي بعدها الاختبار.

الخوف امتحان.

والأمن امتحان.

الضعف امتحان.

والقدرة امتحان.

وقد يكون الإنسان في حال الضعف أوضح افتقارًا، لأن حاجته ظاهرة. ثم تأتي السعة فيدخل عليه وهم الاستغناء.

فإذا جاءت القوة وزادت العبودية، عرف القلب وجه النعمة.

وهنا ترجع آية النور مرة أخرى: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: 55].

ليست ذيلًا بعد وعد كبير.

إنها ميزان الكبير كله.

* * *

وتظهر صورة أخرى للوعد الجماعي في قصة تختلف في مخاطَبها وسياقها.

قال الله عن فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 4].

ثم قال: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: 5-6].

هذه الآيات في بني إسرائيل مع فرعون.

في أول المشهد: ﴿عَلَا﴾ [القصص: 4].

﴿جَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القصص: 4]. ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ [القصص: 4]. ﴿يُذَبِّحُ﴾ [القصص: 4].

﴿يَسْتَحْيِي﴾ [القصص: 4].

المشهد من جهة العين ممتلئ بفعل فرعون.

هو الذي يملك الجند، ويصنع الخوف، ويتصرف في حياة الناس.

ثم تتغير جهة الأفعال: ﴿وَنُرِيدُ﴾ [القصص: 5].

﴿أَنْ نَمُنَّ﴾ [القصص: 5]. ﴿وَنَجْعَلَهُمْ﴾ [القصص: 5]. ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: 5].

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ﴾ [القصص: 6]. ﴿وَنُرِيَ﴾ [القصص: 6].

هنا يتسع العالم الذي تراه العين.

أفعال فرعون حقيقية.

القتل حقيقي.

والاستضعاف حقيقي.

والخوف حقيقي.

لكنها ليست الأفعال الوحيدة الموجودة في القصة.

فوق ما يفعله فرعون: ﴿وَنُرِيدُ﴾ [القصص: 5].

والمستضعف لا يرى من موقعه كل ما يريده الله.

قد ينظر إلى من يملك السيف فيظن أنه يملك القصة.

لكن القرآن يدخل على المشهد فاعلًا لم يدخل في حساب الطاغية.

وما بين ﴿وَنُرِيدُ﴾ [القصص: 5] وتمام هذه الكلمة ستكشفه القصة نفسها حين يمضي بها القرآن إلى آخرها.

لا تجعل ما يفعله المتسلط هو الفعل الوحيد الذي تراه.

بل لأن الله يفعل.

* * *

لليأس الجماعي نبرة خاصة: ربما يصلح فرد، لكن الصورة الأكبر لن تتغير. وهنا لا يمنحك القرآن جدولًا زمنيًا لتكذيب هذا الخوف. يمنحك أفقًا أوسع منه. ليس عجز الفرد تعريفًا لقدرة الله على الجماعة. وليس قصر عمرك تعريفًا لطول القصة. وليس ما رأيته من جيل واحد هو كل ما يستطيع الله أن يجريه في أجيال. أنت ترى قطعة من الزمن. والأمة أوسع من القطعة. وهذا لا يبيح لك أن تدعي ما لا تعرف من المستقبل. لكنه يمنعك أن تجعل حدودك أنت حدودًا لأفعال الله.

وقد يكون في اليأس الجماعي شيء خفي من تضخيم الذات: لأنني لا أرى الطريق، فلا طريق. لأنني لا أملك القدرة، فلا يمكن. لأن عمري لا يسع النتيجة، فالقصة لا تسعها.

أما العبودية فتقول:

أنا محدود.

وربي ليس كذلك.

* * *

ومع هذا الاتساع، لا نملك أن نستولي على الغيب:

آية النور لها مخاطَبوها وأوصافها، وقصة بني إسرائيل مع فرعون لها سياقها الخاص. فلا يجوز أن تجمع النصوص ثم تضع اسم جماعتك أو دولتك أو جيلك فوق كل واحد منها وتقول: نحن المصداق الذي لا يحتمل غيره، وهذا موعدنا، وهذه الصورة التي لا بد أن تقع لنا كما تخيلناها.

كما لا يجوز في الجهة الأخرى أن ترى ضعفًا أو تقصيرًا في المسلمين ثم تجعل نفسك عارفًا بسر القدر كله، فتجزم أن سبب تأخر صورة من صور القوة هو هذا العامل وحده أو ذاك.

نعرف التقصير الذي دل عليه الشرع فنسميه تقصيرًا. ونعرف الواجب فنعمل به. أما جدول توزيع أقدار الله على الأمم والأجيال فليس بأيدينا.

فالفرق كبير بين أن تصدق ما وعد الله به، وبين أن تدعي أنك تملك خريطته التاريخية.

* * *

ثم ارجع مرة أخرى إلى غاية الوعد: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: 55].

كلما عظمت في خيالك صورة القوة، أعد هذه الكلمة إليها.

أما المؤمن فيرجو الأمن والقوة والتمكين، ثم لا يستحي أن يقول في سريرته:

يا رب، اجعل ما تعطينا معينًا على عبادتك، لا حجابًا عنك.

واجعل القوة خادمةً للحق، لا فتنةً للقلب.

واجعل الأمن يردنا إلى الشكر، لا إلى الغفلة.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: 137]

لليقين في القرآن بابٌ آخر.

بعد أن تسمع ما وعد الله به، وتعرف من الذي وعد، وتتعلم ألا تجعل خوفك أكبر من خبره؛ يأخذك القرآن أحيانًا إلى شيء لا يشبه الشرح.

يريك الوعد حين كان غيبًا. ثم يمضي بك في القصة. ثم يريك الكلمة نفسها بعدما صارت واقعًا. لا يقول لك فقط: ثق. بل يبني في قلبك ذاكرةً لما فعل الله حين وعد.

﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: 7]

قال سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 7].

أمٌّ تحمل رضيعها، وفرعون يذبح أبناء بني إسرائيل.

الخوف هنا ليس وهمًا صنعته النفس. القرآن نفسه قال: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ [القصص: 7].

ثم يأتي الأمر الذي لو نُزع من الوحي لكان أوسع أبواب الخوف: ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: 7].

اليد التي تريد أن تضم طفلها مطالبة أن تتركه للماء.

لكن الأمر لم ينته عند الماء.

نزل بين الخوف والماء وعد: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: 7].

ليس: ألقِيه ثم انظري ماذا يحدث.

ولا: لعل له نجاة.

قال الذي يعلم الماء وما وراء الماء، ويملك فرعون وقصر فرعون وما سيجري بعد ذلك كله: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: 7].

ثم جرى ما لم يكن يطمئن إليه قلب أم لو نظرت إلى الأسباب وحدها: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ [القصص: 8].

ألقته خوفًا من فرعون، فحمله الماء إلى بيت فرعون.

ونحن نقرأ القصة من نهايتها. نعرف أن موسى سيعود. أما هي فكانت تعيش المسافة بين الجملتين: بين ﴿رَادُّوهُ﴾ [القصص: 7] وبين الرد.

ولهذه المسافة ألمها.

قال الله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: 10].

الوعد حق، والقلب يتألم.

والوعد حق، والأم تكاد تبوح من شدة ما تجد.

وحتى ثبات القلب في زمن الانتظار عطية: ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ [القصص: 10].

ثم تتبعه أخته من بعيد، ويحرم الله عليه المراضع، ويبحث آل فرعون عمن يرضعه، حتى يجيء الموضع الذي يستطيع القرآن أن يقول فيه ببساطة: فعاد موسى إلى أمه.

لكنه لا يقوله هكذا.

قال: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: 13].

قف بين كلمتين: ﴿رَادُّوهُ﴾ [القصص: 7].

ثم: ﴿فَرَدَدْنَاهُ﴾ [القصص: 13].

الأولى خبرٌ عن شيء لم يقع بعد. والثانية خبرٌ عما وقع. وبينهما ماء، وقصر فرعون، وقلب أم، وأخت تقتص الأثر، وطفل لا يقبل المراضع. كل ذلك دخل في الطريق.

ولم يكن شيء منه قادرًا أن يسقط حرفًا من: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: 7].

ثم كشف الله الغاية التي نحتاج أن نحملها نحن من المشهد: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص: 13].

لم يكن الرد هو الذي جعل وعد الله حقًا. كان وعد الله حقًا منذ صدر. الذي تغير أن الأم انتقلت من سماع الوعد إلى رؤية بعض وفائه. المشاهدة لم تصنع صدق الله، كشفت للعين ما كان حقًا قبل أن تراه. وهذا فارق يحتاجه القلب حين لا يعرف الطريق.

أم موسى لم تكن مأمورة أن تعرف كيف سيعود طفلها قبل أن تلقيه. ولو حاول إنسان أن يرسم الطريق بعقله، فهل كان أول ما يخطر له أن يلتقطه آل فرعون، ثم يرفض المراضع، ثم تكون هذه الأسباب نفسها هي الطريق إلى رجوعه إلى أمه؟

لم تكن تحتاج أن تحمل الطريقة في رأسها حتى تكون كلمة الله حقًا.

كان حقًا قبل أن تفهم.

ثم جاء اليوم الذي رأت فيه: ﴿فَرَدَدْنَاهُ﴾ [القصص: 13].

﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: 3]

ومن بيت أم خائفة على رضيع، يأخذك القرآن إلى خبر تسمعه مكة عن قوتين عظيمتين في زمانها.

قال سبحانه: ﴿الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 1-6].

ابدأ بما كان واقعًا عند نزول الخبر: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ [الروم: 2].

هذا هو الحاضر.

غلبة وقعت، وخبر يعرفه الناس.

ثم تأتي الآية التالية بشيء لا تملكه العين بعد: ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: 3].

غُلِبوا.

وسيَغلبون.

ثم لا يترك القرآن الخبر معلقًا في أفق بعيد: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: 4].

وبين الدولتين، وقبل الغلبة وبعدها، يرد الأمر كله إلى موضعه: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: 4].

فارس لا تخرج بغلبتها من ملك الله.

والروم لا تعود بغلبتها لأن التاريخ أفلت لحظةً من يده ثم استرده.

﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: 4].

ثم سمى الله خبره باسمه: ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ [الروم: 6].

وأغلق باب الشك في مصدره: ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم: 6].

ومضت السنون.

وحفظت السنة خبر وقوع ما أخبر به القرآن. ففي حديث نيار بن مكرم الأسلمي رضي الله عنه عند الترمذي (3194): «فَلَمَّا دَخَلَتِ السَّنَةُ السَّابِعَةُ ظَهَرَتِ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ»، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

صار ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: 3] شيئًا يحكى بصيغة الماضي.

وهنا لا تحتاج إلى كلام كثير.

ضع الكلمات إلى جوار بعضها: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ [الروم: 2].

ثم: ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: 3].

ثم وقع ما أخبر الله به.

وفي قلب المسافة كلها: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم: 6].

هذا المشهد يضيف إلى مشهد أم موسى شيئًا آخر.

هناك كان الوعد في أشد مواضع القلب خصوصية: أم ورضيع.

وهنا الخبر في الآفاق: دول، وجيوش، وغلبة، وسنوات، وأحداث لا يملك المسلمون في مكة توجيهها.

الذي وعد أم موسى بالرد هو الذي أخبر عن حركة قوتين عظيمتين: ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: 3].

ثم وقع ما أخبر.

من قلب أم إلى حركة إمبراطوريات.

الواعد واحد.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: 137]

ثم يأتي القرآن إلى وعدٍ آخر، لم يكن في شأن فرد ولا في واقعة عسكرية بين قوتين، بل في شأن قوم طال استضعافهم تحت فرعون.

قال الله في أول القصة: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ

﴿أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: 4-6].

في أول الصورة أفعال فرعون تملأ العين:

علا.

وفرق الناس.

واستضعف.

وذبح.

واستحيا.

ثم يدخل على المشهد فعلٌ من جهة أخرى: ﴿وَنُرِيدُ﴾ [القصص: 5].

ثم: ﴿أَنْ نَمُنَّ﴾ [القصص: 5].

﴿وَنَجْعَلَهُمْ﴾ [القصص: 5]. ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: 5]. ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ﴾ [القصص: 6].

هذه الكلمات في أول الطريق.

ثم تمضي قصة موسى وفرعون، وتأتي الآيات والسنون والمواجهة، ويغرق فرعون، حتى نقرأ بعد ذلك قول الله: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: 137].

هنا لا يقول القرآن: وما زلنا نرجو أن يقع ما وعدنا.

قال: ﴿وَتَمَّتْ﴾ [الأعراف: 137].

هذه الكلمة وحدها تستطيع أن تحمل قسمًا كاملًا.

كان في أول المشهد: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: 5].

ثم صار: ﴿وَأَوْرَثْنَا﴾ [الأعراف: 137].

وكان: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: 6].

ثم جاء الإعلان: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: 137].

انتقلت العبارة من جهة الوعد إلى جهة الوفاء.

ولم يكن ذلك مجرد مناسبة بين آيتين نحب أن نجمعهما، فقد رد أهل التفسير الكلمة الحسنى هنا إلى ما سبق من وعد الله لبني إسرائيل بالمنّ عليهم وجعلهم وارثين وتمكينهم.

قال الله.

ثم جرى في الطريق ما جرى.

ثم قال القرآن نفسه: ﴿وَتَمَّتْ﴾ [الأعراف: 137].

ما أثقل هذه الكلمة في ميزان اليقين.

الآن اجمع المشاهد من غير أن تخلط خصوص كل واحد منها.

في الأول: أمٌّ ورضيع. ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: 7] ثم ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ﴾ [القصص: 13].

وفي الثاني: غلبة يعرفها الناس، ثم خبر عن غلبة آتية: ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: 3]، ثم وقع ما أخبر الله به.

وفي الثالث: قوم مستضعفون، وكلمة: ﴿وَنُرِيدُ﴾ [القصص: 5]، ثم جاء يوم قال فيه الوحي: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: 137].

ثلاثة مشاهد لا يشبه واحد منها الآخر في حجمه ولا في صورته. قلب أم. وأفق دول. ومصير قوم عبر سنوات طويلة. لكن شيئًا واحدًا يجمعها: الواعد واحد. وهذه هي الثمرة التي نحتاجها. ليس أن نحفظ قصصًا جميلة فقط، بل أن تتكون للقلب ذاكرة عن الله.

فإذا جاء خوف جديد، لا يبدأ التعرف إلى ربه من الصفر. لقد عرف من قبل:

قال ﴿رَادُّوهُ﴾ [القصص: 7] ثم قال ﴿فَرَدَدْنَاهُ﴾ [القصص: 13].

وقال ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: 3] ثم وقع ما أخبر.

وقال ﴿وَنُرِيدُ﴾ [القصص: 5] ثم قال ﴿وَتَمَّتْ﴾ [الأعراف: 137].

هذا لا يخبرك كيف سيكون الطريق في كل وعد لم تر تمامه.

ولا متى.

ولا بأي صورة.

لكنه يمنع شيئًا أخطر: أن تعيش كل مسافة جديدة كأنك لا تعرف شيئًا عن صدق من وعد.

وتبقى خصوصية هذه الوعود كما جاءت: وعد أم موسى ليس وعدًا لكل أم أن يرد إليها كل غائب. ووعد الروم واقعة مخصوصة، لا جدولًا نتنبأ به لكل صراع.

والوعد لبني إسرائيل له مخاطَبوه وسياقه، ولا يملك فرد أو جماعة أن يضع اسمه مكانهم من غير دليل.

خصوص الموعود يمنعك أن تسرقه لنفسك. لكنه لا يمنعك أن تعرف الواعد من وفائه. فوفاء الله لأم موسى يخبرك عن الله. ووقوع ما أخبر به في الروم يخبرك عن الله.

وقوله بعد وعد بني إسرائيل ﴿وَتَمَّتْ﴾ [الأعراف: 137] يخبرك عن الله.

نحن لا نحول القصص إلى قوالب للمستقبل.

نحولها إلى معرفة أرسخ برب المستقبل.

نحن أسرى لما وقع؛ لأن الماضي يملك أدلته الحسية. تستطيع أن تشير إليه وتقول: حدث. أما المستقبل فلا تستطيع أن تشير إليه بعد. ولهذا يشعر القلب أحيانًا أن الخبر عن الماضي أصلب من الخبر عما سيأتي. لكن هذا صحيح حين يكون مصدر الخبر إنسانًا محدود العلم. أما إذا كان الذي أخبر هو الله، فالمستقبل ليس غيبًا عليه كما هو غيب عليك.

لا ينتظر الزمن حتى يعلم هل يصيب خبره. ولهذا لا يصبح وعد الله حقًا حين يقع. هو حق، ثم يقع. الوقوع يضيف إلى مشاهدتك أنت، لا إلى صدق الله. هذه الجملة هي ما ينبغي أن يبقى بعد المشاهد كلها.

أم موسى قبل أن ترى الرد وبعد أن رأته لم يكن ربها قد انتقل من احتمال الصدق إلى اليقين.

الذي انتقل هو قلب العبد من السماع إلى المشاهدة.

والروم حين كانت مغلوبة لم تكن ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: 3] أقل صدقًا من اليوم الذي وقعت فيه الغلبة.

وكلمة الله لبني إسرائيل لم تنتظر ﴿وَتَمَّتْ﴾ [الأعراف: 137] حتى تصبح حسنى.

كانت كلمة ربك. ثم أرانا ربك تمامها. وهنا يصير الماضي القرآني جزءًا من إيمانك بالمستقبل. ليس مجرد تاريخ وراءك. إنه شاهد تحمله معك. إذا قال الخوف: لكنني لا أرى كيف؛ تذكر أن أم موسى لم تكن ترى كيف.

وإذا قال الواقع: لكن الصورة الظاهرة تسير في الاتجاه الآخر، تذكر ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ [الروم: 2] ثم ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: 3].

وإذا ملأت عينك أفعال البشر حتى بدا لك أنهم يملكون القصة، تذكر أفعال فرعون كلها، ثم الكلمة التي دخلت عليها من فوقها: ﴿وَنُرِيدُ﴾ [القصص: 5].

ليس لأن قصتك هي قصتهم.

بل لأن ربك هو ربهم.

ولهذا كانت عبارة المؤمنين يوم الأحزاب عجيبة: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 22].

قالوا ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب: 22] وهم ما زالوا داخل الشدة، لا بعد أن انتهى كل شيء.

وهذا هو اليقين حين تصبح له ذاكرة. لا يحتاج في كل مرة إلى أن يرى النهاية قبل أن يصدق الخبر. ليس لأنه أغلق عينه عن الواقع. بل لأنه فتح قلبه على شيء أوسع من اللحظة.

أم موسى لم تكن عند ﴿فَرَدَدْنَاهُ﴾ [القصص: 13] حين سمعت ﴿رَادُّوهُ﴾ [القصص: 7].

وأهل مكة لم يكونوا عند وقوع غلبة الروم حين سمعوا ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: 3].

وبنو إسرائيل في زمن الاستضعاف لم يكونوا قد قرأوا على حياتهم بعد ﴿وَتَمَّتْ﴾ [الأعراف: 137].

كل واحد من هذه المواعيد عاش زمنًا بين الجملتين. ونحن نقرأه الآن من مكان مريح: نعرف الآية التالية. أما في وعود لم نر تمامها، فنحن نعيش المسافة التي كانوا يعيشونها. لكننا نملك نعمة لم تكن المشاهدة قد منحتهم إياها في أول لحظتهم: نملك القرآن كاملًا. نملك الوعد، ونملك بعض مشاهد الوفاء بعده. فلا ينبغي أن ندخل كل مسافة جديدة بقلب بلا ذاكرة.

﴿وَتَمَّتْ﴾ [الأعراف: 137]

ربما كان أجمل ما تصنعه هذه المشاهد أن كلمة «المستقبل» تفقد شيئًا من وحشتها. نحن لا نعرف ما فيه. لكننا نعرف رب المستقبل. ولا نملك أحداثه. لكنها لا تقع في ملك غير ملكه. ولا نرى كيف تمضي كلمته إلى تمامها. لكننا رأينا في كتابه كلمات مضت.

طفل حمله الماء إلى بيت فرعون، ولم يقطع الماء الوعد.

وقصر فرعون لم يقطعه.

وغلبة فارس لم تسقط ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: 3].

واستضعاف بني إسرائيل لم يمنع أن يأتي يوم يقال فيه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: 137].

لا تبحث في حياتك عن نسخة من هذه الوقائع.

ابحث عن الثمرة التي أرادها القرآن من أول مشهد: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص: 13].

هذه هي القضية.

وعد الله حق.

ليس إذا فهمت الطريق.

ولا إذا اقترب الموعد الذي تتوقعه.

ولا إذا بدأت العلامات تطابق حسابك.

هو حق لأن الذي وعد هو الله.

ثم جاءت هذه المشاهد رحمةً بقلوبنا، حتى يصير للمعرفة أثرٌ وذاكرة.

نملك في الوحي نفسه طرفي الجملة: **الوعد.**

ثم: **الوفاء.**

﴿رَادُّوهُ﴾ [القصص: 7] → ﴿فَرَدَدْنَاهُ﴾ [القصص: 13].

﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: 3] → **ثم وقع ما أخبر.**

﴿وَنُرِيدُ﴾ [القصص: 5] ← ﴿وَتَمَّتْ﴾ [الأعراف: 137].

وهذا من أعظم ما يبني اليقين.

لكن كلما عظمت منزلة كلمة «وعد الله» في القلب، عظمت أمانة استعمالها.

فإذا كان الله لا يخلف وعده، لم يكن أمرًا هينًا أن يأخذ العبد أمنيةً يحبها، أو توقعًا يغلب على ظنه، أو قراءةً لحدث، ثم يقول:

هذا وعد الله. تعظيم الوعد ليس أن نكثر من هذه العبارة. تعظيمه أيضًا أن نصونها. أن لا ننسب إلى الله ما لم يقله. وأن لا نجعل شدة الرجاء دليلًا على خبر لم يأت به الوحي. لقد عرفت الآن شيئًا من عظمة الوعد، ورأيت شيئًا من وفائه.

فبقي أن تحفظ الحد الفاصل بين ما وعد الله به فعلًا، وبين ما يتمنى الإنسان أن يكون قد وُعد به.

وحين تقول بعد ذلك: **وعد الله.**

فالسؤال الأول ليس: كم أريده؟

ولا: كم أرجوه؟

بل: **هل قال الله؟**

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ [النساء: 123]

بعد أن امتلأ القلب بوعد الله، ورأى في القرآن شيئًا من تمام كلمته، تأتي أمانةٌ لا تقل شأنًا عن اليقين نفسه: **أن لا ننسب إلى الله ما لم يقله.**

فكلما عظمت كلمة «وعد الله» في القلب، صار استعمالها أخطر.

قال سبحانه في سورة النساء: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: 120].

ثم قال في الجهة الأخرى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: 122].

ثم تأتي الآية التالية مباشرة: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: 123].

في مسافة قصيرة وضع القرآن أمام القلب **وعدًا، وتمنيةً، وأمنيةً.**

وعد الله حق.

ووعد الشيطان غرور.

والأمنية — مهما أحبها القلب — لا تصبح خبرًا عن الله لمجرد أنها صارت عزيزةً عليه.

المشكلة ليست أن يتمنى الإنسان خيرًا. يتمنى السلامة، والشفاء، والرزق، وصلاح من يحب، وفتح الأبواب، والجنة، والنجاة من النار. هذه رغبات يمكن أن تكون أبواب دعاء وافتقار.

لكن هناك انتقالًا خفيًا قد يقع في الداخل: **أحب أن يفعل الله هذا.**

ثم: **أرجو أن يفعل الله هذا.**

ثم: **سيَفعل الله هذا.**

ثم أخيرًا: **الله وعدني بهذا.**

بين الأولى والأخيرة مسافة لا تقطعها حرارة الشعور، ولا طول الدعاء، ولا كثرة ما سمعت العبارة من الناس.

الأمنية صورة في القلب.

أما الوعد فخبر من الله.

ولهذا لا تكون قوة اليقين وحدها فضيلة حتى نعرف ما الذي تعلقت به. قد يكون إنسان شديد الثقة بأمر لم يقل الله عنه شيئًا، ويكون آخر خائف القلب أمام وعد ثابت من الله؛ فلا قوة شعور الأول تجعل أمنيته وحيًا، ولا اضطراب الثاني ينقص من حقيقة الوعد.

المصدر هو الفارق.

* * *

ولعل القرآن لم يضع سؤالًا أصرح من هذا في محاكمة الدعوى عن الغيب: ﴿**وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: 80].

القوم لا يقولون: نرجو أن يعفو الله عنا.

إنهم يقررون مستقبلًا عند الله: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80].

فلم يقل القرآن: خففوا ثقتكم.

سأل عن المصدر: ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ [البقرة: 80]؟

ثم جاءت جملة تحفظ حرارة اليقين نفسه: ﴿فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ [البقرة: 80].

لو كان عندكم عهد حقًا، فلا حاجة إلى أن تضعفوا اليقين به؛ الله لا يخلف عهده.

المشكلة ليست في قوة التصديق، بل في أن يُحمل التصديق على شيء لم يثبت أنه عهد من الله.

ثم تأتي الجهة الأخرى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 80].

وهذا السؤال رحمة بالقلب؛ لأنه يحرره من عبء لم يكلفه الله به. ليس مطلوبًا منك أن تجعل كل ما ترجوه يقينًا حتى تكون حسن الظن بربك. يمكنك أن ترجوه. وأن تسأله طويلًا. وأن تحبه حتى يؤلمك فواته. لكن لا تحتاج أن تقول: وعدني الله به. بل من تعظيم الله أن تبقى حدود الكلمات واضحة:

هذا دعائي.

وهذا رجائي.

وهذا توقعي بحسب ما أرى.

وهذا — إذا ثبت النص — وعد الله.

لا تحتاج رتبة إلى أن تسرق اسم الأخرى حتى تكون جميلة.

قد يدعو مريض بالشفاء، ويرجو رحمة ربه، ويأخذ بالعلاج؛ ولا يحتاج إلى أن يقول: «الله وعدني أن أشفى من هذا المرض في الدنيا».

وقد يسأل أب صلاح ولده، أو يسأل إنسان رزقًا بعينه، أو زواجًا، أو نجاح مشروع، أو عودة غائب. باب الدعاء واسع. لكن سعة الدعاء ليست سعة النسبة إلى الله.

اطلب كثيرًا، وانسب إلى الله بقدر ما قال. وهذه ليست برودة في الإيمان. إنها إحدى صور تعظيم المتكلم.

* * *

ويقول سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 111].

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: 111].

قد تكون الأمنية دينية جدًا. قد تتعلق بالجنة، وبالنجاة، وبمصير أخروي. ومع ذلك تبقى أمنيةً إذا لم يقم عليها البرهان. **قداسة الموضوع لا تمنح الدعوى قداسة المصدر.** كون الكلام عن الله لا يجعله كلام الله. وكونه عن الجنة لا يجعله وعدًا بالجنة.

ولهذا قال: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [البقرة: 111].

وقد تكون أخطر الأماني ما لم يعد صاحبه يشعر أنها أمنية. تبدأ العبارة مواساةً، ثم تتكرر، ثم يألفها الناس، ثم يأتي زمن لا يكاد أحد يذكر متى انتقلت من كلام حسن المقصد إلى شيء يظنه خبرًا عن الله.

الألفة لا تصنع وحيًا.

وشيوع العبارة لا يقيم برهانًا.

كم من جملة مريحة تتكرر في أوقات الألم: «الله أخذ منك هذا ليعطيك حتمًا كذا»، أو «كل ما فقدته سيعود إليك في الدنيا بصورة أفضل»، أو «ما دام مشروعك صالح النية فلا بد أن ينجح بالصورة التي رسمتها».

قد يكون في بعضها دعاء حسن لو قيل بصيغته الصحيحة: نرجو أن يعوضك الله، نسأل الله أن يفتح لك، نرجو أن يبارك في العمل.

لكن حين تعين سر الله في الواقعة، أو تكتب نتيجةً مستقبلية باسم الله من غير نص، انتقلت إلى مقام آخر.

الدين لا يحتاج إلى هذه الزيادات حتى يكون مُطَمْئِنًا.

لقد وسع الله لنا من موعوده الثابت، وفتح باب الدعاء والرجاء وحسن الظن، ما يغنينا عن صناعة غيب خاص لكل واقعة.

* * *

وقد يخاف القلب هنا أن تتحول الدقة إلى جفاف: إذا لم أستطع أن أجزم بالصورة التي أرجوها، فهل يبقى حسن الظن بالله؟

في الحديث القدسي المتفق عليه، رواه البخاري (7405) ومسلم (2675)، قال الله تعالى: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي».

حسن الظن بالله من أجل أعمال القلب: تعرف ربًا رحيمًا كريمًا حكيمًا، فلا تتهمه تحت ضغط ما ترى، بل ترجوه، وتطمع في فضله، وتثق أن تدبيره لا يخرج عن علمه وحكمته.

لكن حسن الظن شيء، وتحويل صورة بعينها إلى خبر عن الغيب شيء آخر. حسن الظن يقول: **ربي لا يظلمني، وهو رحيم كريم حكيم، وأرجو فضله وعونه.** أما: **ولذلك لا بد أن يعطيني هذا الشيء بعينه في الوقت الذي أتوقعه**؛ فهذه زيادة تحتاج دليلها. لا يجعل الحديث ظن العبد نصًا يكتب به تفاصيل الغيب.

وحسن الظن بالله أجل من أن نحصر رحمته في تصورنا نحن للرحمة، أو حكمته في المخرج الذي اخترناه، أو فضله في الشيء الذي تعلقنا به.

لهذا يستطيع المؤمن أن يقول جملتين كاملتين من غير تناقض: **أرجو ربي رجاءً عظيمًا.**

و: **لا أعلم ما يقدره ربي لي في هذه الصورة بعينها.** لا تحسن الظن لأنك تعرف الغيب. تحسن الظن لأنك تعرف رب الغيب.

* * *

والأماني لا تضر فقط لأنها خطأ في العبارة؛ قد تصنع أمانًا كاذبًا.

قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: 24] .

﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ﴾ [آل عمران: 24].

ليس كل شعور بالطمأنينة سكينةً من الله.

قد يكرر الإنسان جملة يريدها حتى تصير هي التي تطمئنه، ثم يستدل براحة قلبه عليها: أنا مطمئن، إذن الأمر حق.

لكن الراحة ليست مصدرًا للغيب.

وقد يقع نظير ذلك حين يتعامل الإنسان مع رجاء مشروع كما لو كان عهدًا. يبني عليه تفسيره للأحداث، ثم إذا لم تقع الصورة التي كتبها في داخله شعر أن «وعد الله» خذله، مع أن الذي لم يقع لم يكن وعد الله أصلًا.

وهذه من أشد خسائر الأماني: أن تجرح يقين العبد بربه بسبب كلمة لم يقلها ربه.

لو بقيت الحدود واضحة، أمكنه أن يحزن لفوات ما أحب، وأن يعيد الدعاء، وأن يطلب غيره، من غير أن يحمل الله عقدًا كتبه هو ثم نسي أنه كاتبه.

القرآن نفسه جمع الأمرين: ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ [النساء: 122].

ثم: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ [النساء: 123].

فلا صدق الوعد الكامل يجيز لنا أن نسمي أمنياتنا وعودًا، ولا نفي الأماني يجيز لنا أن نبرد في وعد ثبت أنه من الله.

اليقين حار، والنسبة دقيقة.

وهما معًا عبودية واحدة.

* * *

وحين يتكلم القلب عن المستقبل، يكفي أن يعرف رتبة كلمته: أهي دعاء، أم رجاء، أم توقع بشري، أم خبر ينسبه إلى الله؟

فإذا قال: **وعد الله.**

فليأت البرهان.

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 111].

لكن بعد أن يثبت الوعد حقًا، تبقى إضافة أخرى أشد خفاءً.

قد لا تخترع الموعود هذه المرة.

قد يكون عندك وعد ثابت فعلًا.

لكن هل كل طريق تخيلته لتحقيقه جزء منه؟

وهل كل موعد توقعته داخل في الخبر؟

أم أن النفس تستطيع أن تمسك وعدًا صحيحًا، ثم تضيف إليه طريقها ووقتها، وتنسى من أين جاءت الزيادة؟

﴿وَتَوَدُّونَ... وَيُرِيدُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: 7]

كان أمامهم وعد. وكانت أمامهم طائفتان. وكان القلب البشري يعرف أيهما يحب.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: 7].

تأمل ترتيب الكلمات: ﴿يَعِدُكُمُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: 7].

ثم: ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ [الأنفال: 7].

ثم: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: 7].

الوعد من الله، والود في قلوبهم، والله يريد أن يحق الحق بكلماته.

كانوا يودون غير ذات الشوكة: العير، الطريق الأخف مواجهة. والقرآن لم يذم مجرد ميل النفس إلى الأسهل؛ سماه كما هو: ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ [الأنفال: 7].

المشكلة تبدأ حين يندمج في القلب شيئان: **ما وعد الله به.** و: **الطريق الذي أحب أن يأتي منه الموعود.**

قد يكون الموعود ثابتًا، ثم يرسم القلب له طريقًا. وقد يكون الطريق معقولًا جدًا، والأقرب بحسب الأسباب، وقد بدأت نحوه الخطوات حتى صار خلافه يبدو كأنه خروج عن الوعد نفسه.

لكن النص يبقى نصًا.

والطريق الذي لم يسمه الله يبقى طريقًا لم يسمه الله.

ولهذا لا يلزم أن تعيش بلا خطط. خطط، ورجح، وقل: هذا الأقرب بحسب ما أرى. لكن أبق العبارة في رتبتها:

هذا تقديري، لا تمة لوعد الله.

وإذا تغير التقدير، غيّر الخطة.

لا تغيّر النص.

* * *

وللطريق أخ يلتصق به سريعًا: **الموعد.**

إذا رأى القلب طريقًا يرجحه، بدأت الساعة تعمل في داخله. وربما لم يقل له أحد: سيكون في هذا العام أو هذا الشهر، لكن ترتيب الأحداث يوحي بقرب النهاية، فيستقر الإيحاء حتى يكاد يصير جزءًا من الخبر.

ولهذا كانت الحديبية من أبلغ مشاهد السنة في هذا المعنى.

رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا أنه يدخل المسجد الحرام مع أصحابه، وخرجوا معتمرين وساقوا الهدي، ثم وقف الطريق عند الحديبية، ومنعتهم قريش من دخول مكة، وانتهى الصلح إلى أن يرجع المسلمون في ذلك العام.

هنا وقع الضغط في موضع دقيق: إذا كان الخبر حقًا، فلماذا لم تأت الصورة التي كانت أمام العين؟

وكان سؤال عمر رضي الله عنه صريحًا. قال للنبي صلى الله عليه وسلم: «أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَنَطُوفَ بِهِ؟ قال: بَلَى. أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ؟ قال: لا. قال: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ»؛ رواه البخاري (2731).

كل الذي احتاج إلى التحرير كان كلمة لم يقلها النبي صلى الله عليه وسلم:

العام.

الرؤيا حق.

والدخول حق.

والطواف حق.

لكن «هذا العام» لم يكن جزءًا من الخبر.

وما أقرب هذه الزيادة إلى النفس؛ فقد خرجوا بالفعل، وأحرموا، واقتربوا من مكة، وصار الدخول هو الخطوة الطبيعية التالية في ترتيب الأحداث.

لكن السياق الذي أحاط بالخبر لم يصبح جزءًا من الخبر.

وفي الموقف نفسه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي»؛ رواه البخاري (2731).

ثبت الأصل، وسقطت الزيادة.

وهذه من أجمل صور الأمانة مع الوعد: **أن يبقى يقينك كاملًا فيما قيل، وتكون مستعدًا أن تسحب من يقينك كل كلمة أضفتها أنت.**

فلا يحتاج المؤمن إلى أن يضعف قوله: «وعد الله حق» حتى يصحح توقيتًا أخطأ فيه.

بل لأن وعد الله حق، ينبغي أن يكون أشد حرصًا على ألا يجعل توقيته الشخصي جزءًا منه.

* * *

ثم جاء القرآن يفتح الحديبية من داخلها: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 27].

ابدأ من أولها: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ [الفتح: 27].

المشهد الذي توقف قبل الصورة التي تعلقت بها القلوب لم يفتح ثغرة في صدق الرؤيا.

ثم: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ [الفتح: 27].

هذه الجملة تكفي كثيرًا مما نحتاجه هنا. ما غاب عنهم لم يغب عن علمه. و «لا أعلم كيف يسير الأمر من هنا» لا تساوي: «لا يوجد طريق في علم الله».

ثم: ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 27].

لكننا لا نحول الحديبية إلى قاموس نفسر به كل باب مغلق في حياتنا. الحديبية جاء الوحي بتفسيرها، أما نحن فلا نملك أن نقول عن كل منع: هذا فتح خفي، أو منعك الله لأنه سيعطيك كذا.

يكفينا منها ما يسمح به النص:

لا تجعل الطريق الذي تصورته جزءًا من الوعد، ولا تجعل خفاء الطريق إذنًا لاختراع سر غيبي.

* * *

وفي السورة نفسها يقول سبحانه: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: 20-21].

في آيتين ترى زمنًا لا يقع كله دفعة واحدة: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ [الفتح: 20].

ثم: ﴿وَأُخْرَى﴾ [الفتح: 21].

وفي الأخرى: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ [الفتح: 21].

ما لم يدخل بعد في قدرة العبد ليس خارج إحاطة الله.

والموعود قد تكون له مراحل لا يملك القلب أن يختصرها في المرحلة التي يراها الآن.

لا نحول هذا إلى «مراحل شخصية» نعينها لأنفسنا من الغيب، إنما نتعلم أن عدم قدرتنا الآن ليست تعريفًا لما أحاط الله به.

* * *

والزمن نفسه له حدوده.

قال سبحانه في استعجال المكذبين بالعذاب: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: 47].

وقال في موضع آخر من وعيدهم: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ [الجن: 25].

السياقان مخصوصان بوعيد المكذبين، فلا ننقلهما إلى موعد فرج فردي من عندنا. لكنهما يكشفان فرقًا مهمًا:

ثبوت الحدث لا يساوي علم توقيته. وطول الزمن لا يصنع خلفًا. حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخبر بتوقيت الغيب من عند نفسه. فكيف يصبح تقويمنا نحن جزءًا من وعد لم يحدده الله؟ تستطيع أن تتوقع بحسب الأسباب. لكن التوقع يبقى توقعًا حتى يرفعه خبر من الله إلى رتبة أخرى.

* * *

ثم يبقى سؤال أشد من الطريق والموعد: قد أسلّم أنني لا أعرف كيف، ولا متى. لكن قلبي ما زال يقول: **أريد أن أرى.**

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ... أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ [غافر: 77]

بعد أن يترك العبد لله الطريق الذي لم يسمه، والوقت الذي لم يحدده، قد يبقى في قلبه شرط أخير لا يكاد يسمعه:

أريد أن أرى. أريد أن أرى أن ما صدقته قد ظهر، وأن ما صبرت له وصل بعيني إلى نهايته. وقد يكون هذا حبًا طبيعيًا، فالإنسان يأنس إذا رأى الخبر يصير مشاهدة. لكن ماذا لو كان الوعد حقًا، ثم لم تر أنت تمامه؟

خاطب القرآن بهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: 40].

قف عند الاحتمالين: ﴿نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ [الرعد: 40].

أو: ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ [الرعد: 40].

قد يرى الرسول صلى الله عليه وسلم بعض ما أُخبر به، وقد يمضي قبل أن يرى بعض تمامه.

وفي الحالتين لا يصبح الخبر أقل حقًا.

ثم تأتي القسمة التي تعيد العبد إلى موضعه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: 40].

عليك. و: **علينا.**

البلاغ أُسند إلى الرسول، والحساب إلى الله. وما أبقاه الله لنفسه لا يصير من تكليف العبد لمجرد أنه يحب أن يشهده. هذه قسمة عبودية قبل أن تكون قسمة وظائف. العبد لا يقول لربه: أطيع وأصدق بشرط أن تريني في عمري تمام ما أخبرت به. يفعل ما أمره الله به لأن الله أمره. ويصدق ما أخبر به لأن الله أخبر. ثم لا يجعل مشاهدة النهاية أجرةً خفيةً لطاعته.

* * *

ويكرر القرآن المعنى في غافر: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: 77].

لم يقل: فاصبر حتى نريك كل ما وعدناهم به.

قال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [غافر: 77].

ثم أبقى الاحتمالين: أن ترى بعضًا.

أو أن تنتهي أيامك قبل بعض المشاهدة.

وهنا يقع المعنى بكامل ثقله: **كون الوعد حقًا لا يعني أن عمر العبد هو الوعاء الذي يجب أن يحتوي تمامه.**

قد تصدق، وتصبر، وتقوم بما كُلفت به، ثم تنتهي أيامك وقد بقي من المشهد ما لم تره.

وليس في ذلك نقص في الوعد.

الذي اختار لك مقدار ما ترى هو الواعد نفسه.

* * *

وفي يونس يقول سبحانه: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: 46].

مرة أخرى لا يجعل القرآن موت المبلِّغ انقطاعًا للقصة.

﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ [يونس: 46].

أنت قد تغيب عن المشهد بالموت.

لكنهم لا يخرجون بذلك من الرجوع إلى الله.

المشكلة في تصور الإنسان أن موته نهاية الجزء الذي يعرفه، فيكاد يشعر أن ما لم يره بعد موته صار كأنه خارج القصة.

أما الوحي فيرد القصة إلى صاحبها.

الأحداث لا تحتاج إلى بقاء عينيك عليها حتى تبقى داخل علم الله وحسابه.

* * *

ولهذا تأتي خاتمة سورة الروم: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: 60].

في أول السورة كان خبر الغلبة: ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: 3].

وفي آخرها صار للوعد خلقٌ يطلبه ممن يحمله: ﴿فَاصْبِرْ﴾ [الروم: 60].

الوعد لا يعطيك معلومة عن الغد فقط.

يصنع هيئةً لك اليوم.

وقد يضغط عليك من لا يوقن. يسخر من صبرك، ويرى أن ما لم يظهر لا يستحق الثقة، ويكرر أمامك ما تراه عينك أصلًا.

ولا يأمرك القرآن أن تربح معه كل جدال.

يقول: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ [الروم: 60].

لا يجعلك خفيفًا عن موضعك. الصبر هنا ثقل قلب. أن يبقى خبر الله في رتبته حين يطول الزمن ولا تأتيك كل يوم علامة جديدة.

* * *

لكن المسافة لا تبقى فراغًا بين خبر ونتيجة.

قال سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: 55].

تأمل ما جاء بعد: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [غافر: 55].

لم يقل: فراقب العلامات.

قال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [غافر: 55].

و: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: 55].

كأن الوحي يعيد القلب من آخر الطريق إلى ربه في هذه الساعة نفسها. هناك موعود ينتظره، نعم. لكن حياته مع الله لا تبدأ عند تمامه. ربه يُعبد الآن.

وقد يصدق القلب الوعد، ثم ينشغل بالموعود حتى يكاد الموعود يحجبه عن الواعد. يراقب: هل اقترب؟ هل ظهرت علامة؟ هل تغير شيء؟

فترده الآية: استغفر.

وسبح.

واحمد.

العشي والإبكار يصنعان إيقاعًا لا يشبه العد التنازلي.

يوم يمر ثم يوم، وفي كل واحد منهما باب إلى الله لا يحتاج أن تتغير الظروف حتى يفتح.

قد لا يحدث في الخارج شيء جديد اليوم. لكن يمكنك أن تستغفر اليوم. وأن تسبح اليوم. وأن تعبد الله اليوم. هذه ليست أعمالًا جانبية حتى يأتي «الأمر الكبير». هذه هي العبودية التي خُلقت لها.

* * *

وفي السنة جاء خباب بن الأرت رضي الله عنه مع أصحابه تحت أذى مكة.

قال: «شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟» ثم ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يلقاه المؤمنون قبلهم من البلاء، وقال: «وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»؛ رواه البخاري (3612).

ابدأ من أول الكلمة: **شكونا**. الصبر لا يطلب من المتألم أن ينكر ألمه. ولا يجعل طلب الدعاء خيانة لليقين. ثم يأتي الخبر: «والله ليتمّن هذا الأمر». هناك ألم حاضر. وهناك خبر عن تمام آت. ثم: «ولكنكم تستعجلون». ليس حب الفرج هو العيب؛ هم جاؤوا أصلًا يطلبونه.

لكن طول البلاء قد يضيق إحساس الإنسان بالزمن حتى يريد أن تكون النهاية التي يؤمن بها هي اللحظة التالية.

فإذا لم تكن كذلك، بدأ يظن أن المسافة نفسها اعتراض على الخبر.

والنبي صلى الله عليه وسلم وسع لهم الطريق: من كان قبلكم ثبت، وهذا الأمر سيتم؛ فلا تجعلوا طول المسافة يخرجكم من دينكم.

وهنا يتحول السؤال من:

متى يأتي؟

إلى: **كيف أكون لله حتى يأتي؟**

* * *

ويبقى الموت الاختبار الأشد لهذا المعنى.

الموت لا ينتظر حتى ترى كل من أحببت على الصورة التي دعوت لها، ولا حتى تعرف ماذا صار بكل أمر كنت ترجوه، ولا حتى تغلق كل المسائل التي فتحتها في حياتك.

وقد يمضي العبد وفي نفسه أسئلة لم ير جوابها في الدنيا.

لكن الآيات التي خوطب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم تمنع القلب من أن يسمي ذلك نقصًا في تمام أمر الله: ﴿نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ [غافر: 77].

قد يكون نصيبك أن ترى بعضًا.

وقد ينتهي نصيبك من الطريق قبل أن ترى بقيته.

وليس المطلوب أن تضمن لنفسك مقعدًا في مشهد النهاية، بل أن تلقى الله وقد كنت عبدًا صادقًا في الجزء الذي أدركته.

تمام الوعد لله، وعبوديتي لله في الجزء الذي أدركه. هذه الجملة تحرر القلب من شرط خفي: أن أصدق بشرط أن أرى أنا. وأن أعمل بشرط أن تظهر النهاية وأنا موجود.

أما الإيمان بالغيب فيبلغ هنا درجة أخرى: تصدق بالله حتى إذا انتهى عمرك قبل بعض المشاهدة، لم تحتج إلى المشاهدة كي يبقى خبره حقًا كما كان قبلها.

إن أراك من تمام موعوده ففضل. وإن لم يرك، لم ينقص ذلك من حق الخبر ولا من شرف الطاعة. الذي اختار مقدار ما ترى هو ربك نفسه الذي وعد.

* * *

وهكذا لا تعود المسافة بين الوعد وتمامه غرفة انتظار نتوقف فيها الحياة.

إنها زمن عبودية.

«اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي»

وفي هذا الزمن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجَزْ»؛ رواه مسلم (2664).

ثلاث كلمات ترسم هيئة العبد أمام المستقبل: **احرص.**

تحرك إلى النافع، وابذل، وخذ بالأسباب، ولا تسمِّ الكسل توكلًا.

واستعن بالله.

لا تجعل حركتك إعلان استقلال. أنت تعمل لأنك مأمور، وتستعين لأنك فقير.

ولا تعجز.

لا تستسلم قبل أن تبذل ما تستطيع، ولا تجعل ثقل الطريق حجةً على ترك ما في يدك.

هذه الهيئة هي التي يحتاجها القلب بعدما تعلم أن النتيجة لله. فمعرفة أن النتيجة ليست ملكك لا تسقط مسؤوليتك عما تملك. والعمل لا يصنع النتيجة من تلقاء نفسه، لكنه باب التكليف الذي وُضعت أنت فيه.

فتقوم بما عليك كاملًا بقدر استطاعتك، ثم لا تحمل في قلبك دعوى أنك إن أحسنت السبب فقد ألزمت الكون أن يعطيك الصورة التي تريد.

العبد يعمل.

والله يقدّر.

وهذان الموضعان لا يتصارعان.

* * *

قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 111].

مر ببطء على ألفاظ الآية: ﴿اشْتَرَى﴾ [التوبة: 111]

﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: 111]

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [التوبة: 111]

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: 111]

ثم: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ﴾ [التوبة: 111]

هنا لا يقف المؤمن خارج الوعد منتظراً أن يصل إليه شيء من بعيد. نفسه وماله داخل العبودية. والموعود الجنة.

وليس هذا لأن العبد أنشأ على ربه حقًا من عند نفسه، الله هو الذي أنشأ العهد، وسمى الموعود حقًا، وقال: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: 111]

لكن فضل الواعد لا يحول العبد إلى قاعد.

بل يجعل البذل نفسه موضع استبشار: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ﴾ [التوبة: 111]

يستطيع القلب أن يفرح بالموعود وهو ما زال يبذل، لا بعد أن تصير الجنة مشاهدة. لا يقول في كل طاعة: ماذا سأكسب منها الآن؟ ولا في كل بذل: متى أرى المقابل؟ لأنه لم يعقد مع النتيجة العاجلة. عقد مع الله.

وهذه النقلة مهمة: إذا صار أصل العلاقة مع الله، لم يعد بطء الأثر قادرًا أن يجعل الطاعة عبثًا، ولم يعد خفاء التقدير البشري قادرًا أن يمحو قيمة الوفاء.

* * *

والدعاء نفسه من العمل الذي يصنعه اليقين.

علّم الله عباده أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: 194].

تأمل اجتماع الجملتين: ﴿وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا﴾ [آل عمران: 194]

و: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: 194]

لو كان اليقين يغني عن السؤال، لما جمع القرآن بينهما. أنت لا تدعو لأنك تشك في صدق الله. تدعو لأنك عبد مفتقر إليه.

الوعد لا يجعل العلاقة خبرًا باردًا تحفظه ثم تنتظر تنفيذه. بل يفتح لسانك على من وعد.

تعرف أنه لا يخلف، فتزداد ثقةً وأنت تسأل.

وتعرف أنك لا تملك إنجاز ما وعد به، فتزداد افتقارًا.

وهنا يبلغ الدعاء درجةً من العبودية لا تشبه محاولة إقناع متردد أو تذكير غافل.

الله لا ينسى وعده.

وأنت مع ذلك تقول: ﴿وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا﴾ [آل عمران: 194]

لأنك عبد.

* * *

ثم تأتي بدر فتجمع ما تفرق من هذه المعاني داخل مشهد واحد.

أسباب حقيقية.

وقلة حقيقية.

ووعد.

وعمل.

ودعاء.

واستغاثة.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى المشركين يوم بدر وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي». وظل يناشد ربه حتى سقط رداؤه عن منكبيه؛ رواه مسلم (1763).

انظر أولًا إلى الواقع.

ألف.

وثلاثمائة وتسعة عشر.

لم ينف النبي صلى الله عليه وسلم العدد، ولم يتعامل مع الأسباب كأنها غير موجودة. أُخذ بما استطاع المسلمون من إعداد، وجاءت ساعة اللقاء.

لكن الأسباب، بعد أن تؤخذ، لا تنتقل إلى رتبة الرب. فاستقبل القبلة. ومد يديه. وناشد. وقال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني». هذه الجملة وحدها تجمع المعنى كله في صورة عبودية. هو أعلم الخلق بصدق ربه. ومع ذلك يناشد حتى يسقط رداؤه.

فلو كان اليقين معناه أن يقل الدعاء كلما قوي التصديق، لكان المشهد على صورة أخرى.

لكن المعرفة بالواعد لم تورث استغناءً. أورثت افتقارًا أصفى. يعرف أن الله لا يخلف، ويعرف في الوقت نفسه أنه لا يملك أن ينجز الوعد بنفسه.

ثم يقول أبو بكر رضي الله عنه في المشهد: «فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ».

في المكان نفسه ترى يقينًا هادئًا ومناشدةً شديدة.

لم يفهم أبو بكر شدة الدعاء شكًا.

ولم يفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يقينه بالوعد استغناءً عن الدعاء.

كل شيء بقي في رتبته.

الوعد من الله.

والأسباب مأمور بها.

والعبد يعمل.

والعبد يدعو.

والعبد يستغيث.

والله ينجز.

قال سبحانه في بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: 9].

تأمل لفظ: ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾ [الأنفال: 9]

ليس دعاءً باردًا يؤديه قلب مكتفٍ. إنها استغاثة. ومع ذلك هي في قلب وعد. وهذا يحسم وهمًا خفيًا: أن اليقين الحقيقي يجعل الإنسان أقل فقرًا إلى الله. العكس هو الأعبد. كلما عرفت من بيده الأمر حقًا، عرفت أين تضع فاقتك.

* * *

وقد يتساءل القلب: إذا كان الله وعد، فلماذا أدعو؟

لأن الوعد نفسه لم يخرجك من العبودية.

وإذا كان الله قدّر، فلماذا أعمل؟

لأن القدر لم يسقط التكليف.

وإذا كانت الأسباب لا تستقل بالنتيجة، فلماذا آخذ بها؟

لأن الذي خلق الأسباب هو الذي أمرك بما تستطيع منها.

وهكذا يسقط طرفان معًا: **الاعتماد على السبب كأنه يخلق النتيجة.**

و: **ترك السبب باسم الثقة بالله.**

ويخرج المؤمن بهيئة أهدأ:

يفعل ما يستطيع كاملًا.

ولا يدعي ما لا يستطيع.

يدعو وهو يعمل.

ويعمل وهو مستعين.

ويوقن وهو مفتقر.

ولا يرى في الافتقار نقصًا في اليقين؛ يراه ثمرةً من ثمراته.

وهنا يصبح وعد الله قوةً حقيقية في الحاضر.

لا مجرد معلومة عن المستقبل.

يدخل القرار.

ويحرك اليد.

ويفتح الدعاء.

ويمنع العجز.

ويعيد القلب في النهاية إلى رب واحد:

هو الذي أمر.

وهو الذي وعد.

وهو الذي يملك الإنجاز.

* * *

لكن بقي الموعود الأعظم.

موعود لا تنتهي قصته في الدنيا أصلًا.

جنة لم ترها العين.

ورضوان لم يصبح بعد مشاهدة.

ودار إذا دخلها أهلها لم يعودوا يقولون: ننتظر.

هناك ستتغير صيغة الكلام نفسها.

ما كان في الدنيا: **وعدًا نصدق به**

سيصبح: **شيئًا وجدناه حقًا.**

﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ [الأعراف: 44]

وهنا تعود الجملة نفسها، بعد أن اتسع معناها حتى صار ميزانًا للدنيا كلها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: 5].

قف عند ترتيب الجملة: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [فاطر: 5]

ثم: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [فاطر: 5]

الدنيا ليست وهمًا. فيها مال وألم ولذة وفقد ونجاح وخوف. لكن ضغطها على القلب يشتد لأنها أمام العين الآن، بينما الموعود غيب لم يصبح بعد مشاهدة.

وهنا يعمل الوعد عمل الميزان. لا يقول لك: لا تر الدنيا. يقول: لا تجعل ما تراه منها أكبر في حكمك مما أخبرك الله أنك ستلقاه.

قد يكون المكسب قريبًا، واللذة حاضرة، والخسارة مؤلمة، وطريق الطاعة مكلفًا؛ لكن المؤمن لا يزن كل ذلك داخل الساعة التي يعيشها وحدها.

وراء الساعة وعد. وحين يدخل الوعد في الميزان، لا تختفي الدنيا. يتغير وزنها.

* * *

قال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: 61].

في جهة: ﴿مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [القصص: 61].

وفي الجهة الأخرى: ﴿وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ [القصص: 61].

المتاع حاضر. والوعد لم يقع بعد. ومع ذلك يسأل القرآن: هل يستويان؟

ليس لأن متاع الدنيا لا قيمة له، ولا لأن كل من قل نصيبه منها أفضل ممن كثر نصيبه. المسألة أعمق: هل يجوز أن يصير الشيء الأقرب زمنًا هو الأكبر قدرًا لمجرد أنك تراه الآن؟

﴿فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ [القصص: 61].

هذه الكلمة تنقل المستقبل من مساحة الاحتمال في النفس إلى مساحة اللقاء. هناك أشياء تعيش معها ثم تفارقك. وهناك موعود تمشي إليه حتى تلقاه. فإذا خسرت شيئًا من الدنيا لم يعد كل المشهد قد انهدم. وإذا عرضت لك لذة على حساب طاعة، لم تعد اللذة وحدها حاضرة في القرار. وإذا بذلت في سبيل الله ما تحب، لم يعد ما خرج من يدك هو كل ما في المسألة. الوعد الذي ستلقاه دخل اللحظة قبل أن تراه.

* * *

ثم تأتي آية مريم: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: 61].

﴿وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ [مريم: 61].

يأتي اسم الرحمن في الجملة نفسها التي تحمل وعد الجنة.

ثم: ﴿عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [مريم: 61].

هم لم يدخلوها بعد.

لم تلمسها أيديهم، ولم ترها أعينهم.

ثم: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: 61].

الغيب هنا ليس فراغًا يملأه الخيال. هو وعد من الرحمن سيأتي كما أخبر. ولهذا يستطيع القلب أن يشتاق من غير أن يخترع. **الأمنية لا تصنع موعودًا، لكن الموعود الحق يصنع شوقًا.** ليس كل ما اشتد تعلقك به قد وعدك الله به.

لكن حين يخبرك الله عن الجنة، وعن رضوانه، وعن دار لا ينقطع نعيمها، فليس من تمام الإيمان أن تبقى هذه الأخبار معلومات باردة في آخر العقيدة.

الخبر الذي صدقته يملك أن يحرك قلبك. تنتظره. وتستبشر به. وتشتاق قبل أن ترى. لا لأن قوة شعورك أثبتته، بل لأن الله أثبته، ثم جاء شعورك تابعًا للخبر.

* * *

ومن رحمة الله بالقلب أن ما وعده به أعظم من قدرة خياله أصلًا.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»؛ رواه البخاري (3244) ومسلم (2824).

حتى حين تشتاق، لا تحيط بما تشتاق إليه.

وحتى حين تقرأ أوصاف الجنة، لا تصبح مهمتك أن تكمل الغيب بخيالك.

يكفيك أن تعرف أن ما أعده الله لا تضيق به حدود ما رأيت في الدنيا، ولا حدود ما تستطيع أن تتصوره منها.

وهنا يصير عجز الخيال بابًا للرجاء، لا نقصًا في الوعد. أنت لا تحتاج صورةً كاملة حتى تفرح بما وعد الله. يكفي أن تعرف من وعد.

* * *

لكن الشوق الذي يصنعه الوعد ليس انسحابًا من الحياة.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: 30].

﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ [فصلت: 30].

ثم: ﴿الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: 30].

شيء عاشوا زمنًا وهو خبر. واستقاموا قبل أن يروه. ثم يأتي مقام يصبح فيه الموعود نفسه موضوع البشارة. كان قبل ذلك غيبًا. وكانت الطاعة قبل ذلك في عالم لم تر العين فيه الجنة.

ثم يسمعون: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: 30].

كم طاعة صغيرة يتغير مذاقها إذا عاش القلب بهذا الانتظار؟

ليس لأن كل طاعة ستصير سهلة، بل لأن التعب لم يعد يتحرك في أفق مغلق.

المؤمن يعبد الله لأنه ربه، لكنه يعرف كذلك أن ربه لم يترك الطاعة تمضي إلى لا شيء.

أخبر.

ووعد.

وبشّر.

ولهذا لا يجعل الإيمان بالغيب الإنسان أقل حياة في الدنيا.

يجعله أقل استعبادًا بها.

يعمل، ويبني، ويصلح، ويفرح، ويحزن، لكن قلبه يعرف أن هذه ليست الصفحة الأخيرة.

* * *

وحتى هذه اللحظة كان القلب في جهة واحدة من الزمن:

نحن هنا.

والوعد أمامنا.

نصدق قبل أن نرى.

ونصبر قبل أن نرى.

ونعمل وندعو ونشتاق قبل أن نرى.

ثم يفتح القرآن نافذة على الجهة الأخرى.

قال سبحانه: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: 44].

﴿قَدْ وَجَدْنَا﴾ [الأعراف: 44].

هذه هي الجملة التي كان كل شيء قبلها غيباً.

لم يقولوا الآن:

نرجو.

ولا:

نوقن أنه سيأتي.

ولا:

نصبر حتى يأتي.

قالوا: ﴿قَدْ وَجَدْنَا﴾ [الأعراف: 44].

ما كان خبرًا صار مشاهدة.

وما كان غيباً تزاحمه الدنيا في القلب صار حقيقة مشهودة كما أخبر الله.

ثم: ﴿مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ [الأعراف: 44].

ربنا.

الذي عرفناه قبل أن نرى.

الذي صدقناه حين كانت الدنيا هي الظاهرة.

الذي عبدناه وسألناه وصبرنا لأمره، ولم تكن الجنة بعد أمام العين.

الآن لم يتغير الوعد.

الذي تغير موضع العبد منه.

كان يسمعه.

ثم صار يراه.

* * *

وهنا تظهر وظيفة اليقين كلها.

في الدنيا يمكن للإنسان أن يقول:

لماذا أترك؟

لماذا أصبر؟

أين ما وُعدنا؟

ويمكن أن تمضي عليه أيام لا يرى فيها شيئًا من تمام ما ينتظر.

لكن الموت لا يجعل الوعد حقًا بعد أن لم يكن.

كان حقًا قبل الموت.

ويمضي العبد إلى اليوم الذي ينكشف فيه ما عاش يصدق به.

هذه هي عبودية الغيب:

أن تعطي خبر الله وزنه قبل أن تضطر إلى إعطائه وزنه بعد أن تراه.

أن يكون صدق الله كافيًا لقلبك قبل أن تصبح المشاهدة كافية لكل أحد.

* * *

ثم يمضي القرآن أبعد من جملة: وجدناه حقًا.

يفتح أبواب الجنة نفسها: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: 73].

كانوا يقرأون عن الجنة.

الآن: ﴿جَاءُوهَا﴾ [الزمر: 73].

كانوا يصدقون السلام.

الآن يسمعون: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر: 73].

كان الخلود خبرًا من الغيب.

الآن يقال: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: 73].

لكن كلمة ﴿خَالِدِينَ﴾ [الزمر: 73] نفسها أوسع من أن تمر سريعًا.

في الدنيا لا يكاد يكتمل نعيم حتى يدخل عليه خوف زواله. صحة تخشى عليها المرض، وشباب يزحف إليه الهرم، واجتماع يهدده الفقد، وحياة يعرف صاحبها أنها مهما امتدت تنتهي بالموت.

أما هناك فجاءت السنة بصورة كأنها تنزع من النعيم آخر أبواب الخوف. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْتَئِسُوا أَبَدًا»؛ رواه مسلم (2837).

تأمل تتابع «لا... أبدًا».

لا مرض ينتظر الصحة في آخر الطريق.

ولا موت يقف خلف الحياة.

ولا هرم يأكل الشباب قليلًا قليلًا.

ولا بؤس يترصد النعيم.

في الدنيا كان القلب يصدق وعدًا عن مستقبل لا يراه، وكان من أوجاع الدنيا أن أجمل ما فيها لا يملك البقاء. أما هنا فيقال لأهل الجنة: ما دخلتموه ليس نعيمًا تستعيرونه ثم يُسترد.

﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: 73].

الخلود نفسه من تمام صدق الوعد.

ليس الموعود أن تبلغ الجنة لحظة، بل أن تنتهي وحشة الزوال التي كانت تختبئ خلف كل متاع في الدنيا.

* * *

وقد ربط النبي صلى الله عليه وسلم هذا النداء بقول الله تعالى: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 43].

في الدنيا كان اسم الجنة يرد على القلب خبرًا، يسمع أوصافها، ويصدق أنها حق، ويترك لأجلها، ويصبر لأجلها، ولا يملك منها شيئًا تراه العين.

ثم تتبدل جهة الخطاب: ﴿تِلْكُمُ الْجَنَّةُ﴾ [الأعراف: 43].

لم تعد حديثًا عن دار بعيدة عن الحس.

هذه هي.

الدار التي كان الوعد يدخل بها في قرارات صغيرة لا يراها الناس، في نظرة تركها، ومال أنفقه، وأذى صبر عليه، وطاعة أثقلت جسده، وذنب قام منه راجعًا إلى ربه.

كان كل ذلك يجري والجنة غيب.

ثم يأتي يوم يكون الغيب فيه هو الدار التي يسكنها.

ولهذا لا تعني ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 43] أن العمل استغنى عن فضل الله، فقد علمتنا السنة أن أحدًا لا يدخل الجنة بعمله استقلالًا عن رحمة الله، رواه البخاري (5673) ومسلم (2816). وإنما يري العبد يومئذ كيف لم تكن طاعاته المبعثرة في عمره تسير إلى فراغ، وكيف جعل الله برحمته العمل طريقًا إلى الموعود الذي أخبر به.

ما كان في الدنيا بذلًا في زمن الغيب، صار هنا مقامًا في دار الوعد.

* * *

ثم لم يجعل القرآن أعظم ما في الموعود الأنهار والمساكن والخلود وحدها. قال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 72].

والآن تأتي السنة فتجعل هذه الكلمة حوارًا يسمعه القلب.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ. فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ. فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبِّ، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟ فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»، متفق عليه، البخاري (6549)، ومسلم (2829).

ما الذي يمكن أن يكون أفضل عند أهل الجنة من الجنة التي هم فيها؟ يقول الله: «أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي». هنا يعود كل الموعود إلى أصل العلاقة بين العبد وربه.

في الدنيا كان المؤمن يخاف ذنبه، ويرجو المغفرة، ويسأل الهداية، ويستغيث، ويتوب، ويعمل وهو لا يدري أقبل عمله أم رد، ويرجو أن يلقى الله وهو عنه راض.

ثم يأتي يوم لا يبقى هذا الرجاء سؤالًا معلقًا في القلب: «فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا».

ليس فقط نعيمًا لا ينقطع.

بل رضًا لا يعقبه سخط.

وما أعبد أن تكون الذروة هكذا: كل ما امتلأت به اليد ينتهي بالقلب إلى رضا من أعطى.

* * *

ثم إن في السنة مشهدًا يكاد يكون مكتوبًا لهذا المعنى كله.

عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر أهل الجنة، ثم قال إن مناديًا يناديهم: «يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ».

فيقولون: وما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة، وينجنا من النار؟ ثم يكشف الحجاب فينظرون إلى ربهم، فما أُعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إليه. أخرجه ابن ماجه (187) والنسائي في «السنن الكبرى» (11234)، وصححه الألباني، وأخرجه مسلم (181) بنحوه.

قف عند الكلمة التي لازمت هذا الكتاب من أوله: «مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ».

حتى بعد أن دخلوا الجنة. حتى بعد أن ثقلت الموازين وابيضت الوجوه ونجوا من النار. ما زال عند الله لهم موعد. ثم ينجزه. في الدنيا كان المؤمن يقول: **إن وعد الله حق.**

وكان يدعو: ﴿وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا﴾ [آل عمران: 194].

وكان نبيه صلى الله عليه وسلم يناشد في بدر: «اللهم أنجز لي ما وعدتني».

ثم تبلغ الرحلة دارًا يسمع أهلها مناديًا يقول: «إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ».

فتتجاوز كلمة الوعد كل الصور التي كان القلب يقدر على تخيلها في الدنيا. لم يكن غرض الوعد أن يعطيك أشياء بعيدة عن الله. كان يقودك إليه.

ولهذا قال سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26].

وهنا لا تعود المشاهدة مجرد أن ترى صدق الخبر في النعيم من حولك؛ يبلغ العطاء مقامًا لا يستطيع نعيم محسوس أن يقوم مقامه.

ربٌّ عرفته بالغيب، وصدقته بالغيب، وعبدته بالغيب.

ثم يأتي يوم تنكشف فيه من كرامته لعباده الصالحين زيادةٌ فوق الحسنى.

فأي حصاد للوعد أعظم من أن تقودك عطايا الوعد، في آخر المطاف، إلى كرامة النظر إلى ربك الذي صدقته وعبدته بالغيب؟

وماذا يخرج من ألسنتهم في هذا المقام؟

هل يقولون: أخيرًا أثبتنا أننا كنا على حق؟

هل يصبح مركز الجملة أنفسهم، وصبرهم، وما قدموا؟

لا.

يقول الله سبحانه: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: 74].

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الزمر: 74].

هذا هو الجواب بعد كل الانتظار.

ليس: كنا أقوياء.

ولا: أحسنا قراءة الطريق.

ولا: عرفنا الموعد.

ولا حتى: كنا على حق.

الغاية أن يعرف العبد ربه، ويصدقه، ويعبده في الطريق، ثم إذا كشف الله له ما وعد لم يزده الكشف إلا حمدًا.

قبل المشاهدة كان قلبه يعيش على: ﴿إن وعد الله حق﴾ [فاطر: 5].

وحين يصير الغيب عيانًا تكون كلمته الأخيرة عن ربه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [الزمر: 74]

سلاسل مركز الدراسات والبحوث

السلاسل التي ينتجها المركز

- سلسلة العلوم التطبيقية
- **سلسلة موازين القرآن** — السلسلة الحالية
- سلسلة مفاهيم الفكر المعاصر
- سلسلة حقوق وفضائل
- سلسلة طبائع النفس